التعليم في ضوء فكر النورسي

الدكتور إبراهيم أبو محمد


2

في شهر مارس 1993 كنت في زيارة لمدينة سدني لإلقاء بعض المحاضرات ، وأذكر بعد انتهائي من المحاضرة اقترب مني رجل وقور وسألني قائلاً : "يا أستاذ : هل قرأت لسعيد النورسي؟"

وكانت إجابتي بالنفي لأني لا أعرف الرجل ولم أسمع به من قبل.. لكن السائل تعجب وبدت عيه علامات الحيرة ، وقال "سبحان الله .. نفس الأفكار ، بل نفس العبارات أحياناً " وقلت له : "ماذا تقول؟" ، قال: " لا ، لا شيء يا أستاذ" ، وانصرف الرجل ..

وبعدها بثلاثة أعوام تكرر الموقف ذاته والسؤال نفسه في جامعة سدني بعد انتهائي من أحد المحاضرات .. ولفت نظري تكرار الاسم "سعيد النورسي" ، لكني لم أعر المسألة أي اهتمام .. وقلت لنفسي ربما كان النورسي هذا واحداً من شيوخ الطرق الصوفية الذين يهتم البعض بهم ويصنعون حولهم هالات تصل في كثير من الأحيان إلى مستوى الأساطير .

وفي عام 1996 كنت ألقي محاضرة في جامعة ماكواري واقترب مني شاب إيطالي مسلم وسألني سؤالاً كان جوابه قاطعاً بالنسبة لي . قال السائل: "تعتقد يا دكتور أيهما أكثر تأثيراً في إحياء اليقظة الإسلامية في القرن العشرين حسن البنا أم سعيد النورسي؟" وقلت على الفور بالطبع الإمام الشهيد حسن البنا والمقارنة هنا ليست عادلة ، فمن هو هذا الذي تضعه في مستوى الإمام الشهيد ؟؟

وانصرفت .. لكن السؤال لفت نظري هذه المرة إلى هذا الاسم الذي تكرر على مسامعي من قبل .. ومرت الأيام، وكنت ألقي محاضرة في مسجد الإمام علي بن أبي طالب بحي لاكمبا بمدينة سدني، وبعد الإنتهاء اقترب مني ذاك الرجل الوقور وهنأني على المحاضرة وشكرني على حسن العرض، وأخرج بطاقة تحمل اسمه وعنوانه وكان اسمه إحسان قاسم

الصالحي .. رجل من مسلمي تركيا ، بلد الخلافة التي اغتيلت .. وقرأت البطاقة فإذا به هو مدير مركز أبحاث النور . وتساءلت ما هو مركز أبحاث النور فقيل لي إنه مركز متخصص في العناية برسائل النور لسعيد النورسي، دراسة وتحقيقاً وترجمة . وتعجبت ! ألهذا الشيخ مركز دراسات؟ فإذا بالأستاذ إحسان يكلف بعض طلابه أن يمدني ببعض هذه الرسائل، ومن هنا بدأت أتعرف على الرجل شيئاً فشيئاً ، ثم دعيت في عام 1999 إلى مؤتمر حركة التجديد في القرن الواحد والعشرين وكلفت بإعداد بحث عن التعليم في القرن الواحد والعشرين على ضوء فكر النورسي ، وكانت الدعوة من جامعة Kebangsaan Malaysia .

ومن هنا بدأت صلتي بهذا الرجل من نافذة هذا البحث الذي تمكنت فيه أن أغوص في آثاره العلمية ومؤلفاته التي بلغت ثمان مجلدات بدأت بالكلمات والمكتوبات واللمعات وإشارات الإعجاز والشعاعات والمثنوي العربي والملاحق، وانتهت بصيقل الإسلام وشعرت بالخجل الشديد وأنا أتابع فكر هذا الرجل ، كما أحسست بكثير من الآلام لأن أعلاما كبارا في حياة أمتنا يعيشون حياتهم مليئة بالجهاد والتضحيات ثمّ يموتون في صمت وتحاول قوى شريرة أن تهيل التراب على جهادهم وجهدهم وتنقطع خطوط التواصل بين جيل وجيل كي تعيش أمتنا مهمّشة لا تعرف كثيراً عن أمجادها وكي تبتر الروابط والصلات بين الماضي والحاضر فتعيش الجماهير بلا رأس ولا رمز ولا مرجعية, بلا رأس تفكر ولا رمز للبطولة تلتف حوله وتلتقي عند أمجاده, ولا مرجعية تلجأ إليها وتلوذ بها عند الاختلاف ونزول النوائب وهكذا تغيب أجيالنا بإهمال منّا حيناً و بفعل أعدائنا في كثير من الأحيان.

والنموذج هو هذا الرجل العلامة الذي عاش حراً رغم القيود والأغلال ومتحدياً بكلماته رغم سجون الباطل ومعتقلاته ومواجهاً رغم خلو يده من أي سلاح إلاّ سلاح الإيمان والفكر والعقل والعزيمة التي لا تلين والإرادة التي لا تقهر, وبرغم الحصار الشديد فقد نفذت كلماته إلي قلوب طلابه ومريديه وكأنها الضوء والسنا حين يبدل الليل الطويل المعتكر بل وتجاوزت كل هؤلاء إلي آخرين لم يكونوا يعرفونه من قبل ولا يعرفون قدره ولا يقدرون خطره وآثاره.

وهكذا يريد الله شيئاً ويريد الباطل شيئاً آخر . . . لكنّ إرادة الله تنفذ وقدره يجري **(والله غالب على أمره ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون).**

لذلك رأيت أن أقدم هذا البحث لجماهير القرّاء لا تعريفاً بالنورسي ولا مدحا له فالرجل أكبر من أن يعرّف و أجلّ من أن يمدح وقد شاء الله له أن يكون علامة بارزة ومعلماً من معالم الفكر والجهاد في القرن العشرين, وإنما أردت أن أبسط رؤيته ورؤآه في قضية من أخطر قضايا التحدي في حياة أمّتنا في القرن الواحد والعشرين وهي قضية التعليم, وذلك إسهاماً منّي في تقدير هذا الرجل العظيم وتكفيراً عن خطيئة الجهل به وأرجو الله أن يتقبّل منّي وأن يغفر لي وأن يهدينا جميعاً سواء السبيل.

سيدني في 6 شوّال 1420هجرية

الموافق 13 يناير 2000

مــــدخــــل

نبذة عن اهمية التعليم

الإنسان يأتي إلى الوجود طفلاً قاصر العقل ضعيف الجسم لا يعي شيئاً من حوله ، ثم يبدأ هذا الإنسان في النمو الجسمي والارتقاء العقلي شيئاً فشيئاً ومرحلة بعد مرحلة ، فيتعرف على الأشياء من حوله ، وتستمر هذه المراحل حتى يتم نضوجه ويكتمل نموه ويبلغ أشده ، ووسيلته إلى تحصيل المعارف والتعلم المستمر مجموعة من وسائل الإدراك الممنوحة له من قبل الخالق جل شأنه ، تنمو معه وتزداد اتساعاً وشمولاً مع نموه البدني حتى ينضج عقلاً وبدناً ، ومن ثم تتسع مداركه ويدرك حقيقة ما يحيط به من الأشخاص والأشياء ، ويعرف ما له وما عليه بعد تجارب متعددة تكسبه الخبرة بالأشياء المحيطة ، ومن ثم يبدأ في تكوين وجوده المعنوي الذي تبنى عليه شخصيته ويؤسس عليه كيانه في المجتمع المحيط به .

أهمية التعليم بالنسبة للمسلمين

الإسلام يأبى أن يعيش الإنسان جاهلاً بليد الذهن معطل العقل محجوباً عن الحقائق التي تحيط به في الكون والحياة ، ولذلك تعددت وتضافرت النصوص التي تلفت الإنسان إلى ما حوله وتشده عقلاً وقلباً إلى آيات الله في هذا الوجود بل وفي النفس أيضاً ، يقول تعالى:

[إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم * ويتفكرون في خلق السموات والأرض * ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار][1]

ويقول جل شأنه:

[وفي الأرض آيات للموقنين * وفي أنفسكم أفلا تبصرون][2]

منهج الإسلام إذاً يعتبر طلب العلم فريضة يصلح بها الدين وتصلح بها الدنيا معاً ، وهو منهج يمد عقل الإنسان وفكره بالحقائق اليقينية ، ويربط بينه وبين الكون الذي يحيط به ، ويطلب من الإنسان أن يتزود بالعلم ليعرف كيف يتعامل مع السنن الكونية وسنن الحياة .

وليست غاية التعليم في منهج الإسلام أن يبرز الإنسان في نوع معين من العلم يرتبط بشأن من شئون الحياة ثم يكون جاهلاً فيما عداه ، كما أن الغاية من التعليم ليست الوقوف بظاهر العلم عند حدود القشور وتحصيل العائد المادي وانتهى الأمر دون النظر إلى عواقب الأمور ومآلية الإنسان كما هو الحال عند الأيديولوجيات والفلسفات الأخرى، فتلك نظرة مبتورة وسعى مردود، لأنها في أول الأمر وآخره لن تحقق للفرد أمنه العقلي ولن تحقق للمجتمع أمنه النفسي والاجتماعي، لأن الوسائل فيها قطعت عن الغايات فلم يعد العلم هنا بعائد ذي طائل لا على مستوى الفرد ولا على مستوى المجتمع، حيث بقيت النفوس بظلامها الدامس حتى ولو بدلت في عيشها من سكن الكهوف إلى السكن في ناطحات السحاب أو خرجت من كوكب الأرض وصعدت فوق القمر المنير، فالأمر هنا لا يعني إلا تقدم الآلة وتأخر الإنسان ، يقول تعالى:

---

1 آل عمران: 190-191
2 الذاريات: 20،21

[فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا * ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى][3]

الإسلام يرفض هذه النظرة ويأباها ، لأنه منهج يربط بين الوسائل والغايات ، ولا يقطع النظر في الكون عن التفكير فيمن خلق وأبدع وكوَّن ، وهنا تتحقق وتتبدى غاية أخرى تتجاوز حدود المادة بثقلها وقصور اهتماماتها لتصل إلى قناعة عقلية ونفسية عظيمة الأثر، كبيرة الجدوى، عميقة البعد في تعديل مسار الذات الإنسانية نحو الكمال والرشد حين تكتسب في كل عملية تعليمية كدحاً جديداً أو رقياً في سلم الحقائق، تتيقن من خلاله أن لهذا الكون رباً يدبر أمره ويقوم على كل شيء فيه، ومن هنا تتحول العملية التعليمية إلى وسيلة لغاية أعظم وأجل ، وهي معرفة خالق الكون وواهب الحياة ، فمن عرف الحياة وتوصل من خلالها إلى الإيمان بالخالق العظيم فهو الإنسان حقاً ، وهو المتعلم حقاً وهذا هو التعليم الذي يفرضه الإسلام على أتباعه والمؤمنين به ، ويحيل طلبه قربى إلى الله وعبادة ولو كان في مجال المادة البحتة .

العلاقة بين التعليم والتربية

يقصد بكلمة التربية عملية تكوين الإنسان وصياغته وفق مبادئ معينة ومنهج معين ، ومن هنا تختلف العمليات التربوية باختلاف المناهج واختلاف المجتمعات ، ولا شك أن للتربية دوراً كبيراً في الاتجاهات السلوكية بالنسبة للإنسان ، كما أنها هي التي تحدد دوره في الحياة وتحدد علاقاته وارتباطاته بالزمان والمكان والبيئة ، وتحدد تصوره نحو المجتمع والكون والحياة .

---

3 النجم: 30

ومنهج الإسلام في التربية يتعامل مع الإنسان بشمولية، فهو لا يلبي حاجة على حساب أخرى ولا ينمي جانباً على حساب جانب آخر، فلا يقسم الإنسان إلى مربعات يتعامل مع البعض ويهمل الجوانب الأخرى، أو يوجه بعض الطاقات في اتجاه معين ثم يترك بقية الاتجاهات داخل الإنسان، إنه منهج يؤَمِّن لكل جانب احتياجاته وبالقدر المناسب، فهو يؤَمِّن جانب الروح بالعبادة والتزكية ومداومة الذكر والتطهر من الآثام، ويؤَمِّن جانب العقل بالتفكير المنظم والتأمل الجاد والنظر المتبصر، ويؤمن جانب الجسد بتلبية احتياجاته في الطعام والشراب والجنس والكساء المادي ، فيحيا الإنسان متوازناً سوياً قادراً على أداء وظيفته بعدما تحققت إنسانيته باكتمال العناصر الثلاثة فيه: الروح والعقل والجسد، فليس بالروح وحدها يحيا الإنسان، وليس بالعقل وحده يحيا الإنسان، وليس بالجسد وحده يحيا الإنسان، بواحد منها يمكن أن يعيش إن عاش كما تعيش الأشباح، أو كما تعيش أي خلية بدائية على الأرض دون أن تعرف من أين جاءت؟ وما هو دورها ووظيفتها؟ ومن أنشأها؟ ومن أين مبدؤها وإلى أين منتهاها؟

والإسلام يأبى لأتباعه أن يكونوا كذلك ، لذا فقد تنوعت تعاليمه ودارت توجيهاته حول تلبية هذه الاحتياجات عن طريق التربية الصحيحة والتعليم المستمر من خلال نصوص الوحي المعصوم قرآناً وسنة، فتكاملت في الذات الإسلامية الشخصية السوية التي أدركت من خلال هذا التوازن حقيقة ذاتها، واكتشفت نفسها من خلال الوحي العظيم، وآمنت بدورها الرائد في قيادة الدنيا وإصلاح الحياة وتحقيق الخلافة وإقامة العدل، كما اكتشفت مع اكتشاف ذاتها أنها ليست وحدها في هذا الوجود، وإنما هي جزء من المجتمع الذي تعيش فيه، والمجتمع جزء من الإنسانية، والإنسانية جزء من الكون الكبير، والكون هو ملك للمالك الأعلى جل وعلا، والرسالة التي تلقتها من الله إنما هي منهج يصلح به الدين والدنيا معاً، ويرسم للإنسانية خطاها من البدء إلى المنتهى، ويحمي مصالح الجميع في توافق فريد وانسجام منتظم، يرتقي بحركة الإنسان العقلية من خلال العلاقات المتشابكة والمعقدة من

الفرد إلى المجتمع، ومن المجتمع إلى الإنسانية، ومن الإنسانية إلى الكون، ومن الكون إلى المكون ، في حالة من الصعود المستمر والكفاح الراقي في ميادين الوجود حتى يلقى الله وهو عنه راض، يقول تعالى:

[يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه][4]

وبقدر ما يتوفر للإنسان من معرفة بنفسه وبمحيطه بقدر ما يدرك أن مصدر أمنه كامن في نفسه وفي مقدرته على السيطرة على نزعاتها والتحكم فيها، فخروج النفس على التعاليم التي يحددها الدين للفرد والمجتمع يشكل انحرافاً نحو العدوان والهدم .

ولذلك فقد أملت الفطرة كما أملت الحياة الاجتماعية ضوابط نفسية على الإنسان، إن لم يخضع لها شكّل خطراً على نفسه وعلى غيره، لذلك فقد اتجهت تربية الإنسان البدائي في أول الأمر إلى السيطرة على نفسه، وهذا ما لاحظه علماء الاجتماع، إذ قالوا بأن الإنسان البدائي أتقن السيطرة على نفسه قبل إتقانه سيطرته على غيره، فالنفس الإنسانية مجبولة على قابلية الخير والشر والذي خلقها وسواها هو الذي وصفها بهذا الوصف حين قال جل شأنه:

[ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها] [5]

وهذه حقيقة تعَرَّف عليها الفلاسفة وأدركتها عقولهم .

---

4 الانشقاق: 6

5 الشمس: 7-10

يقول الفارابي: "لا يمكن أن يفطر الإنسان من أول مرة بالطبع ذا فضيلة أو رذيلة، كما لا يمكن أن يفطر الإنسان بالطبع حائكاً ولا كاتباً، ولكن يمكن أن يفطر بالطبع معداً نحو أفعال فضيلة أو رذيلة."[6] فإذا مورست الفضيلة أو الرذيلة وتكررت تمكنت في النفس بالعادة فأصبحت هيئة وسمتاً تعرف به ، فالفضيلة تكتسب بالتعلم والممارسة ، فإذا تمردت النفس عليها أو لم تستجب لها تمكنت الرذيلة من الإنسان فأصبحت هيئة له وسمتاً.

وهذا ما يؤكده سيدنا رسول الله ρ وهو يرسي قيمة أخلاقية من قيم الإسلام فيربي عليها الجماعة المسلمة ويوصيهم بالتدريب والتمرس عليها والتحذير من الوقوع في نقيضها ، ألا وهي فضيلة الصدق ونقيضها رذيلة الكذب فيقول ρ :

" عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً " [7]

وهذا التوجيه النبوي الرشيد يظهر ما للتربية والمران من أثر في تكوين النفس الاجتماعية لدى الإنسان، وما للتمرس في غرس القيم والفضائل وتنميتها من أثر فعال في ذلك، فإذا ما تعودت النفس على الفضيلة ومارسها الإنسان في محيطه سعد وأسعد غيره ، فيسود الوفاق والصفاء، وهما أساس لكل أمن واطمئنان وسلام.

وإذا كان بعض الباحثين يرى أن التربية والتعليم شيئاً واحداً ولا فرق بينهما، فإن آخرين يرون أن التعليم أعم وأشمل من التربية يقول الدكتور عبد الفتاح جلال:

---

6 أبو النصر الفارابي – كتاب فصول نقدية ص21 تحقيق د. فوزي النجار دار الشروق بيروت 1971

7 صحيح مسلم بشرح النووي مجلد 8 ج16 ص160 طبعة دار الفكر 1981

"كلمة التعليم أعم وأشمل في الفكر التربوي الإسلامي من كلمة التربية، فالرسول ρ يعلم المسلمين تلاوة القرآن ، ولا تقتصر التلاوة على مجرد القراءة ، وإنما هي تلاوة تدبر ملؤها الفهم والإدراك والمسئولية واستشعار الأمانة ، فينتقل بهم من هذه التلاوة إلى التزكية ، وهي تطهير النفس البشرية وتنقيتها من الشوائب وجعلها في حالة تسمح لها بتلقي الحكمة وتعلم كل ما ينفعها وما لم تكن تعلمه ، أما التربية فالمقصود بها هو عملية الإعداد والرعاية في مرحلة النشأة الأولى للإنسان."[8]

وهناك من يرى أن التربية أعم وأشمل، وفي العصر الحاضر يقصد بالتعليم شيء آخر أقل شمولاً وأضيق من مدلول كلمة التربية ، فالتربية تشمل جوانب الشخصية كلها، وهي تستعين بوسائل متعددة ومتنوعة، ومنها التعليم ومؤسساته الذي قد يكون مقصوراً على تحصيل المعرفة وزيادتها، أما التربية فهي تتناول ما هو أشمل وأعمق في شخصية الفرد، بينما التعليم يتناول غالباً المعلومات، أي الناحية العقلية، وقد يتناول إتقان المهارات، بينما تتناول التربية ما هو أعم من ذلك إنها تتناول السلوك والعاطفة والاتجاهات الأخلاقية وإيقاظ المشاعر السامية والتدريب على الخلق الجميل، وكل عمل تعليمي جيد لا بد أن يكون له هدف تربوي، أي أن التعليم المثالي إنما هو تربية ولكنه يظل في الاصطلاح مرتبطاً بموضوع ما، فالتربية والتعليم ليسا متعارضين ولا منفصلين بل هما متآزران متكاملان."[9]

والذي نراه أن الفرق بين التربية والتعليم هو فرق في المؤسسات والأهداف، وهذا الفرق ليس كبيراً كما يصورونه ، وينبغي أن ننظر إلى عمليتي التربية والتعليم نظرة متكاملة، وحيث يحدث الانفصام والانفصال فإن ثمة خللاً كبيراً يحدث في نفسية الفرد ثم ينعكس على

---

8 بحث في الأصول التربوية في الإسلام ص16،17 المركز الدولي للتعليم الوظيفي للكبار جمهورية مصر العربية 1977

9 الدكتور عبد الرحمن الباني مدخل إلى التربية في ضوء الإسلام ص7 طبعة المكتب الإسلامي بيروت 1980

سلوكه العام، ومن ثم يحدث الخلل الاجتماعي، وتلك خطورة ينبغي أن نحسب حسابها وأن توضع في الاعتبار . فالذين يذهبون إلى قصر التربية على تربية الأخلاق وتهذيب السلوك، ويقصرون التعليم على أنه جمع للحقائق والمعلومات ، أي أنه يتناول جانب العقل فقط ، لا يتفقون مع نظرة الإسلام الشاملة للإنسان، وينظرون إلى الإنسان نظرة مجزأة ينفصل فيها كل جانب عن الآخر في الكيان العام لهذا الإنسان . والحقيقة أن الإنسان ليس كذلك، وإنما هو كل متكامل لا يصلح بصلاح جانب وفساد آخر، وإذا كنا نضطر أحياناً للحديث عن الجانب المادي أو الجانب الروحي أو جانب العقل أو جانب العاطفة في هذا الإنسان فليس هذا تقسيم له ، وإنما هي ضرورة البحث التي تقتضي تناول كل جانب على حدة ، علماً بأن الإنسان يتكون من كل هذه الجانب، وتتحقق إنسانيته بكمالها وصلاحها وليس بصلاح جانب وفساد آخر، وبناء عليه فنحن نرفض عملية الفصل بين التربية والتعليم ونحذر من مغبتها ، ونرى أنهما عمليتان متداخلتان متلازمتان من حيث العائد العام في سلوك الإنسان وحياته، فأحياناً يطلق التعليم ويراد به التربية لأنه يكون مشتملاً على تعديل في السلوك والميول ولا يكون مجرد تجميع للمعلومات والمعارف، ولأنه لا فائدة من مجرد تجميع المعلومات وتحصيل المعارف ما لم يصحب ذلك تعديل وتنمية السلوك الإنساني، فجمع المعلومات والمعارف وتخزينها وتصنيفها ربما تقوم بها أجهزة الحاسب الآلي في عصرنا هذا ، لكن يبقى الإنسان هو الهدف من عملية التربية والتعليم، وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم نستخلص من خلال نصوصه فصل الخطاب فإننا سنجد أن نصوص القرآن الكريم تحدثت عن عملية التربية في قوله تعالى:

[واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً][10]

وقوله تعالى:

---

10 الإسراء: 14

[ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين][11]

وقوله تعالى:

[ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم][12]

وقوله تعالى:

[كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون][13]

فالنص الأول في قوله تعالى:[وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً][14] والنص في قوله تعالى: [ألم نربك فينا وليداً][15]، هذان نصان يتعلقان بمرحلة الطفولة المبكرة كما يبدو من السياق، أما النص الثالث في قوله تعالى: [ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم][16]، فهذا النص قد جمع بين العمليتين معاً التعليم والتربية بغير فصل ولا تجزيء وبالتالي فالعمليتان مترابطتان متلازمتان بغير انفصال أو انقطاع، وأحياناً تتقدم عملية التعليم على التربية وأحيانا يحدث العكس، غير أن الذي لا يمكن أن يحدث هو الانفصال بين العمليتين أو التناقض بينهما كما تصور المناهج الأرضية، ولئن جاز للباحث المسلم أن يستفيد في مجال ما بخبرة الآخرين بحثاً عن الحكمة باعتبارها ضالة المؤمن، فما يجوز له أن يقبل كل ما يقال في مجال البحث بغير فرز أو تمحيص بحيث تتم

---

11 الشعراء: 18
12 البقرة: 128
13 البقرة: 151
14 الإسراء: 24
15 الشعراء: 18
16 البقرة: 129

عمليـة الاسـتفادة دون أن تحـث شـروخاً فـي تصـور المسـلم ودون أن يكـون لهـا انعكاسـات بالاختلاف والتناقض بين عقيدته ومنهج دينه. وإذا عدنا إلى النص الكريم في قوله تعالى:

[كمـا أرسـلنا فيكم رسـولا مـنكم يتلـو علـيكم آياتنـا ويـزكيكم ويعلمكـم الكتـاب والحكمـة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون][17]

نجد أن عملية التربية متمثلة في تزكية النفوس تقدمت على عملية التعليم، ويلاحظ أن النص الكريم حدد المهمة للرسول ρ في ثلاثة أهداف متماسكة:

- **الهدف الأول** هو المنهج ممثلاً في الوحي الأعلى باعتباره دعامة البناء النفسي والاجتماعي والقرآن هنا يطالب الرسول بتلاوة الآيات ومجرد التلاوة لا يكفي وإنما لا بد من المعايشة مع تعاليم هذا المنهج بتلاوته نصوصاً واستنباطه أحكاماً وتطبيقه منهجاً وهذا هو الهدف الأول للرسالة والرسول .
- **الهدف الثاني** هو التربية بهذا المنهج تأمينا للمجتمع وتحقيقاً لسعادة أبنائه وقد اختار القرآن الكريم كلمة التزكية باعتبارها أقرب الكلمات وأكثرها دلالة على معنى التربية، ولعل اللفظين يترادفان في الدلالة على إصلاح النفس وتهذيب الطباع وشد الإنسان إلى أعلى كلما حاولت المثبطات والهواجس أن تسف به وتعوج.
- **الهدف الثالث** هو التعليم وهذه العملية في تصورنا لا تقتصر على مجرد جمع المعلومات والمعارف وتصنيفها في الذهن، وإنما هي عملية تفتيق الملكات الإنسانية وتفجير طاقاتها وتنوير العقول والأذهان بما تحتاجه وتفتقر إليه النفس البشرية من هدايات في عالم الغيب وعالم الشهادة، بما يحقق للفرد والمجتمع أمنهما النفسي والاجتماعي من خلال السلوك الراشد الذي يتولد عن التربية

---

17 البقرة: 151

الصحيحة والتعليم المفيد ، ومما لا شك فيه أن حالات التعدي على الأمن العام وتهديد أمن الناس فرداً ومجتمعاً ، مظهر من مظاهر الانحراف في البيئة ، يدل دلالة واضحة على غياب عمليتي التربية والتعليم بمعناهما الصحيح عن البيئة ، حيث تسيطر النوازع الفردية، ويسود الناس منطق الأنانية والأثرة والجري وراء الأهواء ورفض قيود القوانين لأنها تفتقر إلى عنصر القداسة في النفس الإنسانية .

وإذا حاولنا أن نجد وصفاً لتجريم الفعل المضر بالفرد والمجتمع والدولة، وإذا حاولنا أن نضع من العقوبات والزواجر من عند أنفسنا لحماية أمن الفرد والمجتمع فلا يمكن أن نجد وصفاً يقبح الفعل الضار ويقتلع جذوره من المجتمع ويحمي الكيان العام من الإجرام والمجرمين مثلما يفعل منهج الإسلام ، ولنتأمل هذا النص على سبيل المثال لا الحصر ، يقول تعالى:

[أنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى][18]

وعلاج مثل هذه الحالات من الإجرام لا يتم إلا عن طريق التربية السليمة بتطهير النفس وتزكيتها وتعويدها على فعل الطاعات وعمل الخيرات . ويقول جل شأنه:

[ومن يأتيه مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وذلك جزاء من تزكى][19]

التزكية هنا ليست فقط عملية تدريب للنفس على فعل بعض الأشياء بطريقة آلية كما يتصور البعض، إنها تعني الإيمان والإصلاح ومقاومة الشر ومنع أسباب الجرائم وضبط الغرائز والشهوات ، ولا يتم ذلك إلا بمنهج الإسلام المتميز في ذاته المتفرد بتوجيهاته التي تتطابق مع فطرة الإنسان السوية المستقيمة ، والتي تستهدف حماية الإنسان من التدني بمنع

---

18 طه: 74

19 طه: 75

أسباب الجرائم وبمنع الفوضى والتسيب والتشويش، وتحقق للفرد أمنه وللمجتمع سلامته بإقامة نظام خلقي دقيق يصوغ حركة الفرد والجماعة ويضبط السلوكيات العامة والخاصة بضوابط محكمة عن طريق العمليتين معاً، التعليم والتربية ، أو التربية والتعليم بغير جنوح للفصل بينهما وبغير وقوع في خطأ الاختلاف والتناقض بينهما كما تصور المناهج المعلبة التي تفد إلى البيئة المسلمة من هنا ومن هناك .

خـلـفـيــة تـاريـخـيــة
التعليم في عصر النورسي

لقد كان الانقلاب الذي عاشته تركيا بعد سقوط الخلافة انقلابا مروعاً، فقد طال الحياة في كل ميادينها وأثر تأثيرا مباشرا على قضية التعليم باعتبارها وسيلة من وسائل تكوين الشخصية، وعاشت تركيا فترة من التمزق والتشرذم والتخلف السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وسيطر الجهل وعمت الفوضى والخواء الروحي، وفرغ الإنسان المسلم من محتواه أو كاد بعد أن بسطت العلمانية نفوذها وسيطرتها على المرافق والمؤسسات العامة وصبغت البلاد بصبغة قطعت أو حاولت أن تقطع كل صلة بينها وبين الإسلام .[20]

فالعلماء قد قتلوا وشردوا ومن بقى منهم فر بدينه ودمه إلى البلدان المجاورة, وفى وسط هذا الغبار المثار الذي سود وجه الحياة في تركيا بلد الخلافة وعاصمة الإسلام لم يكن التعليم ذا معنى يذكر . وبالتالي فقد همشت التعاليم الإسلامية ، وألغيت الحروف العربية ، وألغى الآذان من فوق المآذن، وأضحت مصادر التعليم ومنابعه مجففة بقرار الساسة الجدد الذين التوت أعناقهم نحو الغرب، وأرادوا أن يستبدلوا شمس الإسلام بضباب أوروبا وجليدها البارد، وخيمت الماسونية بظلامها على الحياة في تركيا من خلال الجمعيات التي تعمل لها كجمعية الاتحاد والترقي وجمعية تركيا الفتاة، ولم يكن وسط هذا الظلام من ضوء يذكر غير ضوء القلب المؤمن المتحدى بإيمانه رياح الخماسين التي هبت على الحياة فعكرت صفوها ونشرت فيها جراثيم الجهل، ولم يكن هنالك من شعاع غير مواقف الرجل العظيم بصلابة إيمانه وقوة يقينه ترد التائهين الحائرين وتبعث في النفوس أمل الخلاص في يوم يراه الظالمون بعيدا ويراه المؤمنون قريبا.

---

20 الشعاعات ص 294

وبعد تأسيس الاتحاد المحمدي في سنة 1909 رداً على دعاة القومية الطورانية والوطنية الضيقة ، انضم النورسي إلى تشكيلات خاصة وكان النورسي من أنشط أعضاء الاتحاد الذين أهابوا بالمسلمين أن يدافعوا عن الخلافة ، وبدأ يلقى دروسه ومحاضراته بين القبائل والعشائر مما كان له الأثر الفعال في إيقاظ الروح الإسلامية التي حاولت قوى خبيثة أن تميتها فى تركيا وأن تحي القومية الطورانية بديلاً عنها ، ولم يكن لتعاليم الدين من وجود فعال ، اللهم إلا من خلال ما تركه النورسي في رسائله وبين طلابه ومريديه ، فراحت هذه الرسائل تنتشر كما ينتشر الضوء والسنا في الليل الطويل المعتكر.

دور وتأثير النورسي في إحياء حركة التعليم

لقد تألقت رسائل النورسي وكأنها نسيم يحمل بشائر الشفاء لأمة طال مرضها وطال ليلها، وكانت مواقفه وكلماته بمثابة إكسير الحياة للهمم التي أصابها اليأس وحطمها القنوط، فكادت تستسلم، فلما تعرفت على مواقف الرجل وقرأت كلماته دبت فيها الحياة من جديد وبعثت فيها كل عناصر الاستعصاء على المسخ والتشويه والذوبان، واستيقظت روح المقاومة ضد الهزيمة النفسية والفكرية التي يريد العلمانيون أن يفرضوها على أبناء الأمة ، لذلك يوجه اتباعه بضرورة التصدي لهؤلاء عن طريق القراءة والتسلح بالعلم من خلال رسائله التي تفضح خططهم وتكشف خباياهم وتهتك ستر مؤامراتهم .

ولم تكن كلماته فقط هي التي تحمل إلى أتباعه المعنى العظيم لإيمان رجل عظيم بفكرته، وإنما كانت مواقفه أيضا تلك التي تتضمن أرقى درجات الصلابة في مواجهة الأعداء الذين يريدون إفساد الحياة والأحياء وذلك بقطع صلتهم بالإيمان الذي يمنح الحياة قيمتها ومعناها. ففي مواقف التحدي وما أكثرها في حياة الرجل يقول النورسي موجها كلامه للقضاة الذين يحاكموه:

"ألا فلتعلموا جيدا أنه لو كان لي من الرؤوس بعدد ما في رأسي من شعر وفصل في كل يوم واحد منها عن جسدي فلن أحنى هذا الرأس الذي نذرته للحقائق القرآنية أمام الزنادقة."[21]

ولقد استطاع الرجل العظيم أن يؤثر تأثيراً إيجابياً في حياة المعلمين والمربين والموجهين باعتبارهم القنوات التي تحمل العلم إلى عقول الناشئة، وطالبهم بضرورة التحقيق والتوثيق مع القدرة على الموازنة ومعرفة الأحجام والكتل والنسب بين الأشياء حتى يتمكنوا من الإثبات والإقناع. ولكي تكون حجتهم أوضح ودليلهم أسند وأوثق لابد لهم أن يسلكوا مسلك القرآن في استعمال التجربة في الماديات المحسوسة واستعمال النظر والبرهان في العقليات، وذلك يقتضي صدق الرواية وسلامة التوثيق، لذلك يقول لهم :

"على الوعاظ والمرشدين المحترمين أن يكونوا محققين كي يتمكنوا من الإثبات والإقناع، وأن يكونوا أيضا حكماء مدققين كي لا يفسدوا توازن الشريعة، وأن يكونوا بلغاء مقنعين كي يوافق كلامهم حاجات العصر، وعليهم أن يزنوا الأمور بميزان الشريعة."[22]

وهكذا يزيح هذا الرجل العظيم بكلماته تلك أهم معوقات التعليم في زمنه، فليس من المقبول أن يعيش المرشد والمربى والواعظ خارج إطار الزمان والمكان، فهو في واد والناس والزمان والمكان في واد آخر، كما أنه ليس من المعقول ولا من المقبول أن يتعلق المربى والمرشد والواعظ بأسانيد واهية وقصص لا برهان له ولا دليل عليه، وتلك هي أهم أسباب رفض الفكرة وردها حين لا يملك المتحدث عنها دليلا صادقا وحجة ثابتة، كما أن المبالغة في حجم الفكرة أو الموضوع يفسد قيمتها ويجعلها موضعا للتشكك والظن، ويخل كذلك بميزان العدالة في الأحجام والأوزان والنسب بين الحقائق الدينية المتعددة.

---

1 الكلمات ص 856

22 المحكمة العسكرية 69 انظر منهج الإصلاح والتغيير عند بديع الزمان النورسى ص 63 تأليف عبد الله الطنطاوى. دار العلم دمشق.

ومن هنا تأتى ضرورة معرفة الأولويات وأهميتها بالنسبة للداعية والمربى والواعظ، فبغير معرفة الأولويات تختلط الأشياء وتتداخل، وبالتالي تصعب رؤية الحقائق بشكل واضح، وهذا ما يجعل الآخرون يترددون بدورهم في قبول هذه الحقائق والإذعان لسلطانها.

وبناءً على ذلك كانت توجيهات الإمام النورسي للأئمة والمرشدين والمربيين أن ينأوا بأنفسهم وبمريديهم وطلابهم عن تناول الخرافات والأساطير، وأن يعتمدوا الحقائق وحدها في بناء وتكوين الشخصية المسلمة، وأن تستند أقوالهم إلى الحجة القاطعة والدليل الساطع، وأن ينأوا عن المبالغة والتهويل ، وأن يعيشوا عصرهم وأن تكون الشريعة هي المعيار الثابت لقياس كل الحقائق وكل الأشياء ، ولهذا كان للرجل دوره العظيم في إزالة المعوقات وتوجيه المعلمين من خلال مواقفه ولقاءاته بهم ورسائله إليهم .

متطلبات التجديد في القرن الواحد والعشرين

أسلمة المعرفة كمنطلق للإقلاع الحضاري

إذا كانت أوربا ودول الشمال عموما تعيش عصر المنجزات العلمية أو تعيش ثورة المعلومات إلا أن المتتبع لآثار هذا الإنجاز الضخم في حياة الأوربيين يرى الحياة قد صدأت ، وبغير شك أن الغرب قد قطع شوطاً كبيراً في عالم التقنية التكنولوجية وحقق كثيراً من الإنجازات في مجال العلوم التطبيقية ، ووفر العلم للإنسان كثيراً من الجهد والوقت في ميادين الحياة المختلفة مما يفترض أن يعود على الإنسان بالراحة والطمأنينة ويحقق له السعادة والاستقرار ويوفر له الكرامة والحرية والآمان، ذلك ما يفترض في المردود الحضاري على الفرد والمجتمع هناك، غير أن قراءة الواقع تقول غير ذلك، فهذه المدنية مازالت في الأرض التي نشأت فيها تفرق بين الأبيض والأسود ، ومع أنها وطأت بوسائلها أرض القمر، إلا إنها على الأرض لازالت لم تتخلص بعد من عقدها وعنصريتها وعوامل الكراهية الدفينة في أعماقها.

وبقدر ما حققته من ثورة تكنولوجية في عالم المادة إلا إنها تخلفت في التعامل مع الإنسان، وانعكس التقدم على الآلة وحدها ، وبقي الإنسان كما هو مأزوماً مكتئباً مفزعاً مشطور الذات ، ومع إنها وفرت للإنسان الطعام والشراب والكساء والدواء والجنس ، إلا إنها تعاملت مع الإنسان من منظور واحد هو جانب المادة أو جانب الحيوان فيه ، والإنسان ليس مادة فقط ولا عقلاً فقط ولا جسداً فقط ولا روحاً، وإنما هو مزيج من ذلك كله.

وبالتالي فإشباع جزء على حساب جزء آخر لا يضمن له السعادة ولا يحقق له الاستقرار ، وإنما يشطر ذاته ويجعله يتحرك بنصفه فقط ، ويظل يعانى ظمأ الوجدان وغيبة البعد

الروحي في حياته كلها ، مما يدفعه إلى فقدان التوازن والهروب إلى المهدءات والمخدرات والمنومات والمسكرات، ومن ثم الاكتئاب والضياع والأمراض النفسية والانتحار ، ولم يغن التقدم العلمي فتيلاً في مقاومة الضياع النفسي الذي يعانيه المجتمع ، ذلك لأن التقدم العلمي ربما يضمن تقدم الآلة ولكنه لا يضمن تقدم الإنسان ، ولا يرقى نفسه ولا يهذب سلوكه ولا يطهر وجدانه ولا ينمى فضائله ، ومن هنا فقد روع المصلحين والمفكرين حجم الجرائم التي ترتكب هناك ويصرخ بها الواقع بين كل الفئات .

لقد أضحى الإجرام ظاهرة والمجرم نجماً وبطلاً تكتب مذكراته وتباع قصته بآلاف الدولارات. نعم لقد استطاعت هذه الحضارة أن تخترق حواجز الصوت وحواجز المسافات والأمكنة بوسائلها المختلفة، لكنها لم تستطع أن تخترق حواجز الإنسان ، فتهذب المارد الذي يسكن أعماقه، ولم تستطع ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين أن تستأنس الحيوان الراكض في أعماق الإنسان . ربما سيطرت الحضارة الحديثة بشيء من وسائلها على مساحة من البر أو البحر أو الجو فمسحت عمقه ومنعت وسائل الخصوم من التجوال فيه ، لكنها لم تستطع السيطرة على عمق الإنسان وتمنع الشيطان الذي يتجول فيه فيسلبه آدميته ويحوله إلى وحش له أنياب ومخالب .

أين إذاً منجزات تلك الحضارة وآثارها في حياة هذا الإنسان؟ ربما ملأت عليه بيته بالكهرباء والثلاجة والتلفاز والفيديو ، وربما نقلته من أقصى الأرض إلى أقصاها في زمن قليل، وربما نقلت إليه الخبر بالصوت والصورة من أقصى بلاد الدنيا في دقائق معدودة. وربما حركت له البيت كله بمجموعة من الأذرة ، وربما برمجت له كل شيء في عمله ومنزله عن طريق الكمبيوتر ، ولكنها لم تملأ فراغه الروحي ولم تهذب عمقه الوجداني ولم تطبع مشاعره بالطابع الإنساني . لماذا؟ لأن العلم عندهم بغير سياج من الأخلاق ، وبغير حارس من القيم ، وبغير عاصم من الدين، يقول الحق تعالى:

[وما اختلف إلا الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم][23]

إنه علم يستعمل في البغي والعدوان، والسيطرة، وبسط النفوذ، وإخضاع الطرف الآخر . إنـه علـم لا يهدى إلـى هدى ، ولا يـرد عن ردى. إنـه علـم يوظف منجزات العقل بـلا عقل . وحضارة تستثمر العلم في بسط نفوذ الكبار علـى الصـغار، والأقويـاء علـى الضـعفاء ، وتشرد الشعوب وتجوع الملايين لمجرد أنهم يريدون أن يحتفظوا بذواتهم ، ولا يريدون أن يخضعوا للآخر، ولا يقبلوا نمطه في الثقافة والسلوك والأخلاق . ومن هنـا تـأتي أهميـة أسلمة المعرفـة كمنطلق للبناء الحضـاري فـي حيـاة أمتنـا . فلسنا ضد العلم ، ولا يمكن أن نكون ضد ثمرات العقل ومنجزاته ، وإنما نحن ضد التوظيف الرديء لهذه الثمار وتلك المنجزات .

ومن الطبيعي أن يكون هذا التوظيف الرديء نتيجة للعقل الذي انقطـع عن الله وعبد ذاتـه وهواه ، لكن النتائج المروعة لهذا الانقطاع ولهذا الجحود كانت مرة، ولازالت البشرية تعانى من آثارها المدمرة، ولذا فان الحياة قد صدأت وأضحت في حاجة إلى منهج جديد يحكم مسيرة الأحياء، ويصحح الأخطاء ، ويقي الإنسانية شر أخطار جسيمة تهدد حياتها ليلاً وفى وضح النهار وبأساليب العلم ذاتـه . لقد أضـحت الـدنيا فـي حاجـة إلـى الإسـلام مـن جديد ليقيم فيهـا الميزان بالحق ، وليس غير القرآن من كتاب يفعل ذلك في يسر وسماحة واقتدار ، فهو لا يزال يعلو ولا يعلى عليه، وهو منذ نـزل ولا يزال يحمل طابع الحق ويهدى بآياته إلـى الحق ، ويقيم بالعدل الذي فيه الميزان بين الناس بالحق ، يقول تعالى:

[وبالحق أنـزلناه وبالحق نـزل * وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً] [24]

رؤية النورسي كنموذج لمتطلبات التجديد

---

23 آل عمران: 19

24 الإسراء 105

وإذا كنا على مشارف القرن الواحد والعشرين نتحدث عن التجديد والدور التجديدي لبديع الزمان النورسي ، فإنني ومن خلال الآثار العلمية التي تركها هذا الإمام العملاق المجدد نستشعر الفخر والاعتزاز برؤيته كنموذج ومثال لمتطلبات التجديد في القرن الواحد والعشرين . ذلك لأن الرجل يرى بنور الله ، ويتحدث بحقائق الوحي ، فلا غرابة إن أصابت كلماته لب الحقيقة ، ولا عجب أن سبق الرجل زمانه ، بعد أن عاشه وخبره وعارك الحياة فيه واستقامت طريقته فما وهن وما ضعف وما استكان ، وما انهزم أمام الفكر الوافد ، وما اغتر يوماً ببريقه الخلاب، وإنما دعا إلى الأصالة ، وإلى التفريق والتميز والغربلة والفرز الدقيق ومعرفة الفروق بين الشيء والفكرة، بين عالم الأشياء وتلك هي منتجات العقل الغربي، وبين الأفكار والفلسفات التي تحكم حركة الحياة في أبعادها الزمانية الثلاثة الماضي والحاضر والمستقبل، كما تحكم حركة المجتمعات في أهم بعدين من حياتها، البعد المادي والبعد الروحي:

- البعد المادي ممثلا في الغرائز واحتياجاها المحسوسة .
- والبعد الغيبي ممثلا في الروح وتطلعاتها وأشواقها نحو عالم هي منه جاءت واليه تعود.

وهذا الخلط بين هذين العالمين وان كان كلاهما من صنع الله وإحدى تجلياته في هذا الوجود، إلا أنه سر الأزمة لدى الغرب لأنه تجاهل البعد الروحي من ناحية، وتعامل مع البعد المادي مقطوعاً عن أصله ومبدعه في هذا الوجود من ناحية أخرى . فكان الضياع وكانت الأزمة وكانت كل تلك الكوارث التي تهدد الكوكب الأرضي دون كوابح أو ضوابط .

لذلك وجدنا الإمام المجدد بديع الزمان النورسي يحدد برؤيته الثاقبة أبعاد الأزمة وسر الداء ، وينادى أمته بقلب الأمين الناصح وبصوت النذير العاري وبعقل البصير المدرك ، أن هبوا للنجاة وأوقفوا مركبة العواصف عن موالاة المسير قبل أن يعم الطوفان وتغرق الدنيا ، فهو يرى هذه المدنية الزائفة ويقارن بينها وبين المدنية الإسلامية فيقول:

" إن أسس المدنية الحاضرة سلبية وهى أسس تدور عليها رحاها:

- هدفها وقصدها منفعة خسيسة بدل الفضيلة ، وشأن المنفعة التزاحم والتخاصم ، ومن هذا تنشأ الجناية .

- دستورها في الحياة الجدال والخصام بدل التعاون ، وشأن الخصام التنازع والتدافع ومن هذا تنشأ السفالة .

- رابطتها الأساس بين الناس العنصرية التي تنمو على حساب غيرها وتتقوى بابتلاع الآخرين وشأن القومية السلبية والعنصرية التصادم المريع وهو المشاهد ومن هذا ينشأ الدمار والهلاك .

- وخامسها: هي أن خدمتها الجذابة تشجع الأهواء والنوازع وتذليل العقبات أمامها واتباع الشهوات والرغبات، وشأن الأهواء والنوازع دائما مسخ الإنسان وتغيير سيرته فتتغير بدورها الإنسانية وتمسخ مسخاً معنوياً".

أما أسس المدنية الإسلامية فيقول عنها:

"إنه لا ميزان في الأرض غير ميزان الشريعة ، إنها رحمة مهداة نزلت من سماء القرآن العظيم .

أما أسس مدنية القرآن الكريم فهي إيجابية تدور سعادتها على خمسة أسس إيجابية:

- نقطة استنادها إلى الحق بدل القوة ، ومن شأن الحق دائما العدالة والتوازن ومن هنا ينشأ السلام ويزول الشقاء .

- وهدفها الفضيلة بدل المنفعة وشأن الفضيلة المحبة والتقارب ومن هنا تنشأ السعادة وتزول العداوة .

- دستورها في الحياة التعاون بدل الخصام والقتال وشأن هذا الدستور الاتحاد والتساند اللذان تحيا بهما الجماعات .

- وخدمتها للمجتمع بالهدى بدل الأهواء والنوازع وشأن الهدى الارتقاء بالإنسان ورفاهه إلى ما يليق به مع تنوير الروح ومدها بما يلزم .

– رابطتها بين المجموعات البشرية رابطة الدين والانتساب الوطني وعلاقة الصنف والمهنة وقوة الإيمان ، وشأن هذه الرابطة اخوة خالصة وطرد العنصرية والقومية السلبية .

وبهذه المدنية يعم السلام الشامل إذ هو في موقف الدفاع ضد أي عدوان خارجي."[25]

وهكذا تتضح رؤية النورسي كنموذج ومثال لمتطلبات التجديد في القرن الواحد والعشرين وهى رؤية تجمع بين الوعي والإدراك لحقائق الوحي وبين متطلبات الحياة المدنية من منجزات العلم الحديث فلا تقع في الشراك الخادعة ولا ينطوي عليها البريق المزيف ، وإنما تأخذ من مدنية الغرب أشياءها وتستفيد بما أنجزته دون أن تفقد هويتها وأصالتها ، ودون أن تتأثر بموجات المسخ والتشويه التي عادة ما تصحب الاستفادة من مبتكرات العلم ومنجزات الحضارة .

فالرجل بما له من خبرة وبما أمده الله من بصيرة يطالب الأمة أن تستفيد من علوم الغرب دون أن تتأثر بآثار الفلسفة الغربية الجاحدة، ويربط بين ضياء القلب ونور العقل في معرفة الحقيقة فيقول:

" ضياء القلب هو العلوم الدينية

ونور العقل هو الفنون المدنية

وبامتزاجهما تتجلى الحقيقة

وبافتراقهما تتولد الحيل والشبهات في هذا والتعصب الذميم في ذلك."[26]

ولذلك فنحن نحتاج إلى التركيز الشديد على الربط بين الضيائين أو بين النورين، ضياء القلب ونور العقل حتى تخرج أمتنا من دائرة العجز والتخلف والتبعية وتعود إلى دينها عودا حميداً ، وذلك هو الأمل الذي عمل من أجله مجدد القرن بديع الزمان سعيد النورسي .

---

25 الكلمات ص 856

26 المثنوي ص 14

توظيف دور الشريعة في إيقاظ العقل

من المعروف بداهة أن العين لا ترى لوحدها وإنما لا بد من وسط يعين على الإبصار ، فإذا وجدت العين كاملة وكان الوسط الذي يعين على الإبصار غير موجود فإن العين لا ترى ، والعقل البشري إنما هو البصر، والشريعة هي النور أو هي الوسط الذي يعين على الإبصار ، فمن سار في النور بلا عقل كان كالأعمى الذي يمشي في النور ، ومن اعتمد على عقله بعيداً عن نور الشريعة يكون كالمبصر الذي يمشي في الظلام الدامس فتنعدم رؤيته ، لأن العقل وحده لا يستقل بإدراك الحقائق .

لذلك يتأكد دور الشريعة السماوية في حماية العقل من الشرود وتزويده بالرؤية الممتزجة بالبصيرة ، فإذا اجتمع الشرع والعقل فذلك نور على نور، نور البصر ممثلاً في العقل البشري ، ونور الوحي ممثلاً في شريعة الله السماوية ، ومن امتزاج النورين معاً تتولد الشرارة التي تحفز العقل والفهم الناضج ، وتتكامل في رؤيته الأبعاد كلها ، فتأتي أحكامه مصحوبة بالاستقامة المستمدة من استقامة الشريعة.

وإذا كانت هنالك فئة تحاول جاهدة أن تضع العقل في مقابل النص وتسعى لتكريس هذا الفهم بالمغالطة والتدليس، فإننا نتوجس من هؤلاء ونتوسم فيهم سوء الفهم أو سوء النية أو هما معاً: سوء الفهم وسوء النية، ذلك لأن النص ما كان أبداً ولم يكن يوماً مقابلاً للعقل، المقابل للعقل هو الجنون، والمجنون لا تكليف عليه .

ومن هنا يتضح سو الفهم أو سوء النية لدى طائفة العلمانيين ودعاة الحداثة الذين يملئون الدنيا ضجيجاً وتعج وسائل الإعلام بأحاديثهم ويلوثون عقول الناشئة ويحاولون أن يزيفوا وعي الأمة ، لا عن اجتهاد وعقل يحترم ، وإنما عن كراهية لدين الله ولشريعته تبدو واضحة جلية في لحن القول حين يكون الحديث عن شرع الله وعن منهج الإسلام فتسمع أحدهم يقول وعلى شاشات التلفاز:

"أنا رجل علماني أعتمد العقل وحده سبيلاً للحياة ووسيلة إلى التقدم والإبداع وأرفض قيود النص الديني الذي يكبل مسيرة العقل وخيارنا واضح إما النص وإما العقل ولا أسمح لأحد أن يكفرني."[27]

هكذا وبلا استحياء أو خجل يظهر لحن القول ما كان مخبوءاً ويكشف اللسان عما يكنه الصدر كراهية لدين الله ولشريعته رغم كل محاولات التلبيس والتدليس التي يبذلها هؤلاء ويتسترون خلفها ، إلا أن خداعهم لا ينطلي على الله ، ولا يمر أيضاً على الأذكياء وأصحاب الخبرة والحصافة في مجتمع المسلمين ذلك لأن القرآن قد وضع الضوابط لمعرفة الإيمان الحقيقي من الإيمان المزيف المدّعى وبَيَّنَ أن أهل الإيمان المزيف المدّعى تكاد تظهر عليهم العلامات جلية واضحة وقال الله لنبيه وللمؤمنين:

[أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم * ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول * والله يعلم أعمالكم] [28]

ولحن القول هذا يكشف الكثيرين ويعريهم ويفضح سرائرهم ، ويخرج أضغانهم على شريعة الله وعلى الدعاة إلى الله في مناسبات كثيرة، وإذا كان الصب تفضحه عيونه وتنم عن وجدٍ جفونه، فإن المنافق يكشفه لسانه ويخونه جنانه، وتنزلق منه عبارات تكشف سره وإن لبست وشاح الكلمة الحلوة والمنطق الرنان ، يقول تعالى:

[ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام * وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد] [29]

ويقول تعالى:

---

27 مقابلة تلفزيونية مع الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي في برنامج مواجهات – قناة راديو وتلفزيون العرب – 28 / 6 /99 .

28 سورة محمد 29-30

29 البقرة: 204

[وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة][30]

وهؤلاء قد انكشفت سرائرهم في ميادين شتى، وأولها ميدان الإسلام العملي فهم حين يتنادى المخلصون بتطبيق وتحكيم شريعة الله يصابون بالهلع والفزع والرعب، ويقولون في كل موقع وبمناسبة وبلا مناسبة هل نعود إلى عصر الظلام من جديد؟ هل نرجع إلى محاكم التفتيش؟ من سيفسر النصوص؟ وهل ستطبق أحكام الشريعة في الزنا والسرقة والردة؟ وكيف سنحكم على الناس؟ ثم ألا تتنافى هذه الأحكام مع مدنية الدولة وتقدمية القرن الحادي والعشرين؟ وإذا كان المجتمع هو الذي يحمل جنين الجريمة في أحشائه ، فما ذنب أولئك الذي ستطبق عليهم أحكام الشريعة في القصاص والسرقة والزنا؟

ولا ينسون أبداً أن يصفوا خصومهم بالظلاميين الذين يريدون للأمة أن تعود إلى كهوف القرون الأولى، وأن تتخلى عن الحكم المدني، ثم يحرضون النظم الحاكمة على السرعة في القضاء على هؤلاء باعتبارهم الخطر الذي يهدد أمن الدولة، ويقوض نظام الحكم، ويخرب المجتمع، وهكذا يخرجون من الأجداث كأنهم جراد مذعور يغلفون كراهيتهم للإسلام وشريعته ودُعاته بعبارات منمقة ربما تخدع السذج من الناس، وتلوث عقول الجيل الجديد وتبث فيه روح الكراهية والرفض لأحكام الله، ويصورون أنفسهم ومن على شاكلتهم بأنهم دعاة التنوير والحرية والديمقراطية وتحرير العقل، ثم تظهر عليهم نظرية الاستشعار عن بعد، فيستشعرون الرحمة فجأة ويظهر عطفهم على الجناة على حين غرّة، ويفتحون أفواههم وأبواقهم بضرورة التروي في الأمر وضرورة تحديد من هم أصحاب الحق في تفسير النصوص وتحديد الأحكام ، ثم يطلقون العنان لكل من يملك ورقة وقلماً فلعل مستنيراً منهم يفلح في إقصاء أحكام الإسلام أو ينجح في إخراج بعض المسلمين من دينهم ولو بالتقسيط المريح، وهكذا تستغل هذه الجوقة التائهة الضالة لضرب الإسلام في الداخل عن طريق النيل من دعاته ورموزه والعاملين له .

---

30 المنافقون: 4

وذلك ما حدث تماماً للإمام المجدد سعيد النورسي عندما بدأ يدعو إلى تحكيم شريعة الله والتحرر من نفوذ العلمانيين وسيطرتهم على ميادين الحياة وكأن التاريخ يعيد نفسه ويستدير من جديد . ولئن كان للباطل امتداد في عمق الزمان وعمق المكان ، فإن للحق أيضاً امتداداً في عمق الزمان وعمق المكان وأرض الله لن تخلو أبداً من قائم لله بحجة إما ظاهراً مشهوراً وإما خائفاً مغموراً . وسيبقى دين الله وتبقى شريعته حبل النجاة ووسيلة الإغاثة والإنقاذ، تمنح الدنيا أعلى وأغلى ما فقدته الدنيا حين غاب عنها الإيمان بالله، وغابت عن مجتمعاتها شمس شريعته الغراء ، وإذا كان النص المعصوم في دين الله له القدح المعلا ، فإن العقل في دين الله شريك للنص في معرفة الحقائق والاهتداء إلى الصواب والرشد ، ومن لا عقل له فلا تكليف عليه وجدير بالملاحظة هنا أن الإسلام في مجال التمييز والتفاوت بين البشر لا يعترف إلا بطبقتين اثنتين:

- إحداهما طبقية أهل التقوى ففي ميزان الإسلام لا تدخل الأعراض الزائلة ولا هيئات الناس في تقدير ملكاتهم وإنما المعول عليه قيم متاحة للبشر جميعاً . ولما كان المجتمع العربي قبل الإسلام مجتمعاً طبقياً ينقسم الناس فيه إلى سادة يملكون كل شيء وبيدهم كل مقاليد الأمور، وإلى عبيد لا يملكون حتى من أمر أنفسهم شيئاً ، فإن الإسلام قد جاء ليعدل الموازين ، ويشكل بصياغة جديدة قيم المجتمع فيستبقي فيها ما يفيد ويحافظ عليه وينميه ، ويستبدل فيها ما يضر، ويغير من نظرة الناس بعضهم لبعض ، ويضع معياراً ثابتاً بثبات قيمه في تقدير البشر ، ويرفض النظر السطحي الذي يقف عند حدود الظاهر من الأشياء ولا يغوص إلى عمق الإنسان ليجلي أجمل ما فيه من الفضائل والقيم ، ويخضع تقييم الرجال لمعايير جوهرية جديدة لم يعرفها المجتمع الجاهلي من قبل تتصل بنظافة الخلق ونظافة الضمائر ورجاحة العقل وطهارة النفس ، وتلك قفزة نوعية في التقدير والتقييم أراد رسول الله ρ أن يرسي قواعدها وأن يغرس بذورها في مجتمع

كانت الكلمة والسيادة فيه لمن يملك المال وإن خبثت نفسه ودنست فطرته ، فأراد أن يجعلها لمن يملك طهارة النفس ورجاحة العقل وشرف الضمير ، وأن الثراء والفقر لا دخل لهما في تقدير الرجال، وأن البشر جميعاً متساوون في أصل الخلقة والتكوين، فلا ميزة لدم على دم، ولا لجنس على جنس، ولا للون على لون آخر، يقول الحق تعالى:

[يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم] [31].

ويقول ρ :"*كلكم لآدم وآدم من تراب*."[32] ومن هنا يكون مجال المنافسة في إطار من الفضيلة والشرف وأن خير الناس في الدنيا هو من يلتزم بالتقوى والعمل الصالح ، وذلك مجال متاح لكل من أراد أن يزكي نفسه ويطهر قلبه ويعلي في الأولين والآخرين مكانته .
وهذا ما أكده حديث رسول الله ρ فيما رواه أبو هريرة قال: قال رسول الله ρ :

"*إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم .*" [33]

وتلك هي الطبقية الأولى المعتبرة في منظور الإسلام .

- أما الطبقية الثانية التي يعترف بها الإسلام في تمايز الناس وتقديرهم إنما هي الطبقية العلمية التي ترفع أهل العلم إلى مستوى مرموق في التبجيل والتقدير والتوقير ، وتربط بين المعرفة والتطبيق من ناحية وبين الغايات التي يسعى إليها العالم بعلمه من ناحية ثانية .

فلا يكفي أن يكون لدى العالم عقل موسوعي مجرد لكنه مقطوع الصلة بمن أبدع السموات والأرض، فقلبه من الإيمان فارغ، ومشاعره خالية من الارتباط بالله حينئذ يتحول

---

31 الحجرات: 13

32 مختصر صحيح مسلم حديث رقم 1776 ص 473

33 مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري تحقيق الألباني 1776 ص 473

هذا العلم في أي تخصص كان إلى مجرد "شريط كاسيت" أو "دسك كمبيوتر" على أكثر تقدير ، إنما العلم المعتبر في ميزان الإسلام هو الذي يرتبط بغاية ، فإما أن يهدي صاحبه إلى هدى أو يرده عن ردى ، بصرف النظر عن نوع العلم وتخصصه ، وذلك منحى في توظيف القدرات والملكات جديد يتميز به الإسلام وينفرد ، قال رسول الله ρ :

"ما اكتسب مكتسب مثل فضل علم ، يهدي صاحبه إلى هدى أو يرده عن ردى ، ولا استقام دينه حتى يستقيم عقله."[34]

فأي شرف هذا الذي يحوزه العقل حين ترتبط استقامة الدين باستقامته في شريعة الله ، وهذا في الواقع إعلاء رائع لدور العقل ومكانته في مواجهة فريقين:

- الأول فريق خارج الدائرة الإسلامية ، يلغي دور العقل ويصادر نشاطه ويطالب الأتباع بإطفاء سراجه كي يدخلوا ملكوت السماء، والمبدأ السائد لدى هؤلاء هو: "أطفئ سراج عقلك واتبعني" وهذا ما دعت إليه النصرانية.
- وأما الفريق الثاني فهو فريق في داخل الدائرة الإسلامية ويمثله أولئك الذين يهمشون دور العقل في كثير من المواقع والمواقف، ويمنحونه إجازة مفتوحة حيناً، ولا يكتفون بذلك بل يطاردونه في كل موقع، ويلغون دوره في التعرف على الحقيقة، ولا يقبلون بأقل من سجنه واعتقاله في زنـزانة ضيقة لا تسمح له بالنمو والازدهار عن طريق الحوار والمناقشة، فضلاً عن السماح له بالحياة ليحيا.

والغريب العجيب أن يتم ذلك كله باسم الإسلام الذي حرر العقل وحطم أمامه كل القيود والأغلال. وإذا كانت النصوص، قرآناً وسنة، هي المادة الخام لصياغة الدليل والبرهان والحجة، فإن العقل هو المصنع الذي يصنع هذا الدليل، أو هو الآلية التي بها وعن طريقها يتم

---

34 أخرجه الطبراني في المعاجم الثلاث – انظر فيض القدير شرح الجامع الصغير ج 5 ص 442 دار الفكر

الاستنباط، وصياغة الدليل والبرهان، وإقامة الحجة، وتحديد مناط الأمر والنهي ومعرفة المقصود من الأمر، وجوباً أو ندباً أو إباحة، وكذلك الحال في النهي إن كان للتحريم أو للكراهة أو للتنزيه، وبالتالي فإلغاء دور العقل هنا أو تهميشه لا يتم احتراماً لقداسة "النص" كما يفهم البعض، وإنما هذا الإلغاء أو التهميش يشكل خطورة على المدى البعيد أو القريب على شريعة الله، كما يشكل عدواناً على النص نفسه ، ذلك لأن الدين الذي نعتنقه ونعيش تحت مظلته ، ونتجادل أحياناً حول قضاياه ، هو نفسه الذي قرر رعاية الجهد العقلي في مجال التجربة ، صواباً أو خطأً ، ولم يحرم المجتهد المخطئ من ثمرة جهده وإعمال عقله وإذا كان قد قرر للمجتهد المصيب أجرين، فهو لم ينس المجتهد المخطئ ، والأصل في ذلك هو حديث رسول الله ρ الذي يقول:

"إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر"[35]

كل ما هنالك أن علاقة العقل بالنص ربما ليست واضحة لدى البعض، فقد يفهمون خطأ أن العقل في مواجهة النص ، وهذا غير صحيح على الإطلاق ، بل إن الثنائية والتقابل مرفوضتان شكلاً وموضوعاً في التصور الإسلامي الصحيح .

ومن هنا يجب إزالة اللبس بين النصوص والعقل ، كما يجب فك الاشتباك المصطنع بين الطرفين حتى نقطع الطريق على هؤلاء الذين يلتمسون العيب لشريعة الله ويكيلون الاتهام لدعاة الإسلام ورموزه، فكلاهما النص والعقل وجهان لنعمة واحدة هي نعمة الله الكبرى في الإنسان وعليه:

- **الوجه الأول:** هو نعمة الله وفضله بإنزال الكتاب وإرسال الرسل ورسم معالم العقيدة الصحيحة والشريعة الصالحة ، وهذا هو النور أو الوسط الذي يعين على الإبصار والرؤية .

35 صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي المجلد الثالث ص1342 دار إحياء التراث.

- **والوجـه الثـاني**: هـو توظيـف نعمـة العقل لمعرفـة مـراد الله مـن خلقـه وتحديد العلاقة بين العبد والمعبود والرب والمربوب ، وهذا هو البصر الذي ما كان له أن يرى وحده أبداً لولا رعاية الله له بإرسال الرسل وإنـزال الكتب، يقول تعالى:

[ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور][36]

فالاستقلال بالثـاني "العقـل" والاستغناء بـه عن الأول شرود عن الحق وضـياع للجهد وتبديد للطاقة وانحراف عن الصراط المستقيم ، كما أن إهمـال الثـاني "نعمـة العقل" وتهميش دوره ضياع للأول وتجاهل لأعظم ما فيه من معجزات ومنجزات، وتجميد لما يظهر فيه من الحجج والبينات، وتغييب لعناصر التحدي التي به تميز وتفوق على كل القوانين والتشريعات، وتفويت أيضاً لمصالح العباد التـي جاءت الشريعة لتحقيقها وحمايتها ورعايتها على مدار الليالي والأيام وإلى قيام الساعة .

وبناءً على ذلك لا بد أن يوجد التلازم بين النص والعقل ، وأن تكون العلاقة واضحة بين الطـرفين لا علـى أنهمـا متقـابلان ، فالتقابـل الـذي يتولـد عنـه الاخـتلاف والتنـاقض والتضـاد مرفوض ، وبالتـالي فالثنائيـة التـي تضـع العقـل فـي مقابـل الـنص ثنائيـة مغرضـة ، والطـرح الصحيح في الفكر الإسلامي الصحيح لا يحمل هذا الطابع ولا يعرفه أبداً ولا يعترف بوجوده أصلاً. ولذا فقد وجب التأكيد كما أشرنا على أنهما النص والعقل وجهان لا نقول لعملة واحدة وإنما وجهان لنعمـة واحدة هـي نعمـة الله فـي الإنسـان ممثلـة فـي العقل ، ونعمتـه الكبـرى علـى الإنسان ممثلة في الشرع الشريف .

كل ما هنالك أن النص يمثل الإطار الفكري الذي يتحرك العقل في مداه وفي ظله معاً ، فيستضيء ، ويسترشد ، ويحاول من خلال النص التعرف على الحقيقة والمقصود ولا حرج

---

36 سورة النور: 40

عليه إن سلك في سبيل ذلك كل وسائل البحث ، وطرق كل الأبواب متسائلاً ومحاوراً ومفكراً ومستنبطاً، وأن يفهم تعبداً ولا يتجاوز حدوده .

وإذا كان المجتمع الإسلامي قد عانى من غياب العقل في فهم النصوص زمناً ما فترة التراجع الحضاري والانكسار التاريخي في حياة أمتنا الإسلامية، فإن البشرية كلها قد عانت من التعسف في استعمال النصوص لدى الأوروبيين ، كما عانت من توظيفهم الرديء للدين في إثارة العصبيات والفتن وشن الحروب باسم الصليب على شعوب كثيرة ، وكان للكنيسة والسياسة في الغرب ، ولا يزال ، دور مشين يتندى له الجبين ويخجل منه الزمان ، وقد أضافت الكنيسة والسياسة في العصر الحديث إلى الأيام والليالي السود في تاريخ الدنيا صفحات جديدة ملؤها الجور والظلم والخبث والعار وإبادة الشعوب في بلدان كثيرة ، وليست مأساة البوسنة وكوسوفا عن الأذهان ببعيدة .

كذلك قد عانت الدنيا ولا تزال تعاني من التوظيف الرديء للعلم في مجالات مختلفة وكم قاست البشرية ولا تزال من ويلات أصحاب العقول العلمية الذين استعملوا عقولهم في البغي والعدوان وباعوا علمهم ومعه ضمائرهم وأخلاقهم للشيطان ، فصنعوا أدوات الفتك والتدمير وادخروا في مخازن السلاح من الأنواع البيولوجية والميكروبية ما يكفي لتدمير كوكب الأرض عشرات المرات ، ذلك فضلاً عن المخزون الاستراتيجي المعد لبرامج حرب النجوم ، وهذا هو العلم حين لا يرتبط بالله ولا يعرف للهداية طريقاً وكأن التاريخ يعيد نفسه فتتكرر الأخطاء ولا يعتبر بنو البشر بما حل في السابقين .

فهل تسمع الدنيا صوت الوحي المعصوم وهو يكرر التحذير ويصك الأذان منبهاً إلى خطورة الاغترار بالعلم وتسخيره في الإفساد وظلم الناس وتدمير الحياة ! يقول الحق:

[ويريكم آياته فتعرفونها فأي آيات الله تنكرون] [37]،

---

37 غافر: 81

ويقـول سبحانــه:

[أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم؟ كانوا أكثر منهم وأشد قوة وأثاراً في الأرض * فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون * فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون * فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين * فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا * سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون][38].

فهل يلقى هذا التحذير صدى بين الغافلين والجاحدين؟ وهل يقوم المسلمون بدورهم في إيقاظ العالم؟ وهل ستحسن أمتنا استثمار دور الشريعة في توظيف العقل وشحذ الهمم وإيقاظ العزائم في تحقيق الخروج من دائرة التخلف والاستعداد ليوم الخلاص بتحكيم شريعة الله والاهتداء بمنهجه؟ ذلك أمل طالما عمل له وعاش من أجله ذلك الرجل العظيم بديع الزمان سعيد النورسي .

التكامل في الرؤية بين القيم المادية والقيم المعنوية

إذا كان الإيمان هو الذي يمثل قلب الحضارات، والعلم بمنجزاته المتعددة يمثل عقل الحضارات، فإن المادة بثقلها وضغطها تمثل جسد الحضارة، وفي عصور الهيام بالمادة وهيمنتها على العقل والوجدان تختفي وتتوارى بواعث الإيمان ومظاهره في النفس والمجتمع، ويصبح العقل خادماً لا سيداً ، وتتحول إنجازاته المختلفة إلى وسيلة لمزيد من الإغراء بمتعة جديدة بعدما ملت النفس وتشبعت من صنوف المتع وأنواع المتاع ، حينئذ تطغى بواعث المادة وتتلاشى أنوار العقل وتتوارى أشواق الروح، ويتخلى الإيمان والعقل

---

38 سورة غافر 82-85

عن دورهما الهام في قيادة النفس والمجتمع والسيطرة على ميادين الحياة بعدما أضحت الحياة نفسها مأساة وملهاة حين أمسكت فلسفة المادة بكل الخيوط وأضحت مفاهيمها هي التي توجه مسيرة الحياة والأحياء ، وعند ذلك تبدأ لحظة الانكسار الحضاري والتراجع التاريخي، ويبدأ الخط البياني في النـزول بعدما وصل إلى القمة في الإشباع والترف المخل بقانون العدالة والإسراف المعطل لقانون التوازن، وتلك هي معاناة مدنية الغرب التي بدأت تتآكل من داخلها بجراثيم الوضاعة والمعصية والكوكايين والهيروين والأيدز .

وإذا كانت هذه المدنية تفرض التخلف على الآخرين بحرمانهم من منجزات العلم ومبتكراته ومخترعاته ، وتصنع الحدود والسدود في وجه كل محاولة للاستفادة من خبراتها في هذا المجال، فإنها لا تكتفي بذلك فقط بل تدمر كل نشاط علمي يقوم به الآخرون للخروج من دائرة العجز والتخلف والتبعية ، وتصنع بؤر الصراع لتتذرع بها لتحطيم كل محاولة يقوم بها العالم الإسلامي في ذلك المجال ، بل إنها لا تكف عن محاولات فرض نمطها الأخلاقي المهترئ والمحمل بفيروسات الجريمة وغرور القوة وطغيان الشهوات، وتهب منها بين الحين والحين رياح الخماسين التي تحاول قطع العالم الإسلامي عن جذوره وتراثه وتاريخه ليتحول نبتاً شيطانياً لا جذور له في أرض الحضارات ، وإذا كانت أمتنا تعاني تخلفاً ذريعاً في عالم المادة فإن القيم المعنوية تتأثر هي الأخرى في الذات الإنسانية بهذا التخلف، ولما كان الإسلام يطالبنا بأن لا نبخس الناس أشياءهم فإنه كذلك يلزمنا بضرورة التوازن بين قيم الحياة بقسميها المادي منها والروحي باعتبارها تمثل شطري الإنسان في خلقته وتكوينه، ولا يستقيم طريقه كما لا تستقيم حياته بعيداً عن هذا التوازن .

ومن هنا كانت واقعية الإسلام العظيم حين جمع في منهجه بين الدنيا والآخرة وبين عالم الغيب وعالم الشهادة ، بين المادة والروح، بين الملك والملكوت، بين العقل والقلب، بين السيف والقلم، بين الحرية والانضباط، وبين الفن والالتزام ، وهذا في الحقيقة تكامل يصلح به الوجود الإنساني، وترتقي به الحياة وتزدان، فلا يطغى فيها جانب على آخر، ولا يشبع جانب

ويجوع آخر، وبهذا التكامل يتوازن الإنسان مع ذاته أولاً ومع البيئة من حوله ومع الوجود كله باعتباره جزءا من هذا الوجود وعنصراً من عناصره المؤثرة فيه والمتأثرة به .

لذلك كان من الضروري ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين أن نربط بين القيم المادية والقيم المعنوية في عقول الناشئة وفي منهج التعليم وفي أساليب التربية وآليات صياغة العقول، فلا يتركز الأداء العلمي والتربوي على الجانب المادي فقط ، وإنما لا بد من تكامل الرؤية بين الجانبين حتى نتلاشى انشطار الذات، لذلك يلفت النورسي نظرنا بشدة إلى هذه الحقيقة فيقول:

"إن الذين يبحثون عن كل شيء في المادة عقولهم في عيونهم ، والعين لا تبصر المعنويات." [39]

وهذا الذي يلفت النورسي انتباهنا إليه إنما هو حقيقة قرآنية صادقة ، حيث يقول الله فيها:

[وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك، ولا تبغ الفساد في الأرض، إن الله لا يحب المفسدين] [40]

كما يلفت النبي ρ نظرنا أيضاً إلى هذا التوازن حين يقول ρ :

"كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان: سرف ومخيلـــــة."

وبرغم معاناة الرجل، وبرغم الحياة المليئة بالمتاعب التي عاشها مجاهدة ومطاردة وعراكاً مستمراً وطرداً ونفياً وتشريداً، إلا أن الرجل بفكره الثاقب ونظره البعيد استطاع أن يسمو بنفسه فوق كل هذه المتاعب، ومزج بين جمال الفكر وروعة الفكرة وبين متع الحياة ولذاتها في داخل النفس حتى ولو كان الإنسان صفر اليدين خالي الجيوب ، فالفقر لا يمنع الإنسان من المتعة ولا يحول بينه وبين لذة الاستمتاع إذا حسنت رؤيته، وحينئذ يتحول برغم

---

39 المكتوبات س 606

40 القصص: 77

الفقر إلى صديق حميم للحياة حتى في صورتها الحسية التي قد ينظر البعض إليها نظرة تحقير وازدراء .

يقول النورسي:

"من أحسن رؤيته حسنت رويته وجمل فكره، ومن جمل فكره تمتع بالحياة والتذ بها."[41]

فهو قد جمع هنا بين قيمتين إحداهما معنوية هي إحسان الرؤية للأشياء، فالأشياء في حد ذاتها مادية ولكن النظرة إليها أضفت عليها بُعْداً آخر وأضافت إليها حساً جديداً ما كان الوجدان يستشعره ويحس به لولا إحسان الرؤية، وإحسان الرؤية هنا مبعثه النظر إلى فلسفة الأشياء لا إلى الأشياء نفسها، فالصور الجامدة لا تبقى جامدة في تصور الذين ينظرون إليها نظرة تفكر وتأمل، وإنما تبدو من خلفها حكمة عليا وإرادة تتسم بالدقة والإحكام وعلم يحيط بالأشياء من كل جانب ويلحظ الرباط القوي بين النسب والأحجام والكتل والأوزان .

وذلك باب يجده الفكر الجميل مفتوحاً أمامه ليرى صور الأشياء المادية البحتة، ممزوجاً بالحقائق المعنوية الكبرى، في رباط وثيق ومزج عجيب يتناول كل قيمة بمعيار العدالة، ويقوم كل حقيقة بلا بخس ولا مغالاة، وتلك هي معايير المنهج الحق الذي اعتنقه مجدد هذا العصر الإمام النورسي فانطلق منه وعاش له وتفانى في خدمة فكرته فخلده المنهج ورفع قدره وذكره بين الشعوب والأمم، فهلا استفدنا منه في ضرورة الربط والتجانس بين القيم المادية والمعنوية في عقول الناشئة من أبنائنا حتى نتلاشى هذا الضياع المترع بالآلام والاكتئاب وفقدان الغاية لدى مدنية القرن العشرين التي تعيشها الدنيا، متاعاً ومتعة مقطوعة الصلة عن كل قيمة روحية أو وجدانية؟

الربط والتجانس بين العقل والبصيرة في عملية التعليم

وأثر ذلك في توظيف التقدم العلمي

---

41 الكلمات ص 606

في بواكير الوحي الأولى يلحظ الباحث الرباط الوثيق بين القراءة باعتبارها وسيلة فعالة من وسائل التعليم وبين المصدر الآمر بها وهو الرب الذي خلق:

[إقرأ باسم ربك الذي خلق] [42]

فالقراءة هنا ومنذ اللحظة الأولى تبدأ باسم الرب الذي خلق ، ولئن كان القارئ على الأرض والقراءة التي تلقاها كانت أيضاً على الأرض، إلا أن مصدرها كان من السماء، وحاملها إلى النبي كان ملكاً من السماء، والآمر بها أيضاً هو خالق الإنسان والأرض والسماء والوجود كله.

فهي إذاً قراءة ترتفع بالإنسان وتسمو به وتعلي من قدره وشأنه ليكون عبداً لله سيداً في الكون، فهي ترتبط بمقصد وغاية، ووسيلة التلقي لهذه القراءة إنما هو العقل الموهوب للإنسان من الخالق جل وعلا ، وإذا كان العقل وحده لا يستقل بإدراك الحقائق وإن أدرك بعضها ، إلا أنه إذا امتزج بالبصيرة وتوحد معها، زادت رؤيته وجذبت البصيرة إليه عالماً من الرؤية غير محدود ، فلا تتوقف رؤيته عند حدود الحسيات المرئية فقط، وإنما يصبح هذا العقل ممدوداً بأنوار البصيرة التي تستمد بدورها من أنوار الإيمان، فتهدي العقل أجمل وأعلى وأغلى ما يفقده العقل حين يسير في دروب الحياة وفي منحنيات العلم بغير هدى من أنوار الوحي السماوي ، فتضييع جهوده ويقوده هواه ، وتصبح ثمرة إنجازاته وحصيلة تجاربه كلها في يد الشيطان، ومهما كان العقل ذكياً ومهما توفرت له من أسباب النشاط العلمي ومن إمكاناته فلن يتمكن في نهاية المطاف من الاحتفاظ بثمرات جهوده بعيداً عن العبث والاستعمال الرديء بغير ضوابط من الوحي المعصوم .

وهل المأساة التي تمسك بخناق العالم عموماً والأمة الإسلامية على وجه مخصوص ترجع أسبابها إلا إلى الانفصال بين العقل والبصيرة ، أو بتعبير أدق بين العقل وضوابط

---

42 القلم: 1

الأخلاق الفاضلة التي هي ثمرة من ثمرات الإيمان الصحيح ونتيجة من نتائجه الباهرة في ضبط حركة الوجود وحماية البيئة وترقية الحياة ؟

وإذا كان الإسلام يرفض أن يتحدث باسمه من لا يعرفون دنياهم ، فإنه كذلك يرفض أن ينتسب إليه من لا يعرفون ربهم ممن يتأبُّون على هداياته ويترفعون عن الخضوع له حتى ولو علموا ظاهراً من الحياة الدنيا فذلك مبلغهم من العلم ، وهذا في الحقيقة سر الداء في عالمنا الإسلامي خصوصاً ومصدر المأساة في أمم الدنيا المعاصرة ، علماء دين لا يعرفون دنياهم، فهم في واد ، والناس والزمان والمكان في وادٍ آخر وعلماء دنيا لا يعرفون دينهم ، فهم يتصرفون بلا ضابط ولا رابط ودون اعتبار لمقتضيات الحكمة والأخلاق والعقل البصير .

ومن ثم كان الشذوذ والنشاز والنغم الفاجر المفعم بالجحود والنكران، والذي يشيع الإلحاد باسم العلم ، والفوضى باسم الحرية ، واستغلال الشعوب باسم حماية الديمقراطية ، ويفرض نمطه وثقافته ومبادئه وفلسفته على الآخرين باسم العولمة والكونية الجديدة .

ولقد تنبه لهذا الفجور العقلي مجدد العصر الإمام النورسي وأدرك خطورة هذا الفجور وتأثيره في تلوث البيئة بشراً ومكاناً وزماناً فقال:

"لا قيمة لبصر دون بصيرة فإن لم تكن سويداء القلب في فكرة بيضاء ناصعة فحصيلة الدماغ لا تكون علماً ولا بصيرة فلا عقل دون قلب."[43]

وهكذا يُشَخِّصُ هذا المعلم الكبير مرض المدنية المعاصرة ويحدد مصدر الداء في أنها مدنية لا قلب لها وإن تَفَوَّق العقل وجاب أرجاء الفضاء بمراكبه ، وحل هنالك فوق سطح القمر ، إلا أن صدر الإنسان على الأرض لا يزال معتماً ، وسيظل كذلك ما ظل بعيداً عن توجيهات الوحي المعصوم وهدايات السماء ، قال الحق سبحانه وتعالى:

---

43 الكلمات 848

[الر ،كتاب أنـزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلـى النـور بـإذن ربهم إلـى صـراط العزيز الحميد][44]

ولذلك يتحتم على الباحثين المخلصين أن يحذروا ويحذّروا من طروحات العلمانيين في الجانب التعليمي وحرصهم الشديد على الفصل بين ما هو ديني وما هو دنيوي أو بين ما هو ديني وما هو علمي كما يزعمون ، وهذا في الحقيقة تقابل لا معنى له ولا وجود في التصور الإسلامي الصحيح ، غير أنهم يعملون بجد ويبذلون جهودهم بلا ملل لتكريس هذا المفهوم في نظريات التربية والتعليم وفي الوسائل والآليات، ويلبسون دعواهم مسوح العلم ووشاح العصرنة وما إلى ذلك من الشعارات التي جرت أمتنا وراءها ردحاً من الزمن فما وجدت غير الوهم وتأكد لديها أن السراب لم يكن ماءً حتى يتجه الظمآن إليه ليروي ظمأه .

وإذا كان جناح المادية الحديثة قد تحطم بسقوط الشيوعية الماركسية في الاتحاد السوفييتي وأوربا الشرقية إلا أن دعاة العلمانية وحراق بخورها الذين كانوا يتوجهون إلى سماء الكريملين ، ويصلون إليه ويقسمون بحياته ويلعنون الإمبريالية في الصباح والمساء إرضاء لآلهتهم الموهومة ، إلا أنهم وبحركة لولبية سعتها ثلاثمائة وستون درجة وبعد سقوط آلهتهم المدعاة قدموا أوراق اعتمادهم خدماً للإمبريالية التي كانوا بالأمس يلعنونها وأقسموا لها أن يكونوا حرباً على الإسلام والمسلمين وأنهم سيرونها من الهجوم على الإسلام وتجريح عقائده والنيل من دعاته ورموزه ما تقر به عيونها الزرقاء ، ولعلهم بذلك يكفرون عن إساءتهم لها ونكرانهم لقوتها وفضلها ، لذلك تراهم بين الحين والحين يخرجون من جحورهم مذعورين كلما ذكر الله ورسوله والدار الآخرة ، أو كلما تحدث حريص على مصلحة الأمة منبهاً أو ملفتاً إلى دور الدين عموماً والإسلام خصوصاً في غرس القيم وتربية الضمائر وتعديل الموازين الجائرة وتعمير القلوب الخربة ، حينئذ يبدأ سيل أقلامهم يطفح بصديد

44 سورة ابراهيم 1-2

الكراهية والبغضاء ، ويحاول بالتدليس والتلبيس أن يرتدي ثوب الناصح الأمين والحريص على تقدم الأمة ومواكبة العصر والدخول إلى تكنولوجيا القرن الواحد والعشرين ، وكأن ذلك كله لا يتم في نظرهم إلا بالخلاص من الدين وطرح تعاليمه جانباً والكف عن الحديث عنه كموجه للحياة ، فتلك علاقة خاصة يمارسها من يشاء ويطرحها ويدعها من يشاء دون تدخل من الآخرين أو فرض الوصاية عليهم فيما يأخذون وفيما يتركون.

وهكذا يتسللون لواذاً إلى الإعلام والتعليم ووسائل صياغة الرأي العام وهم يطرحون هذا الفكر الملوث في محاولة لإعادة الحياة إليه من جديد بعدما جربته أمتنا فلم تجن منه غير المرارة والعلقم ، ولقد كان مجدد العصر مثلاً للعالم الرباني الذي يدحض شبه هؤلاء ويرد كيدهم إلى نحورهم في منطق بارع وحجة قاطعة ، فلنستمع إليه وهو يعطي الأسباب حجمها ويقرر في يقين العارفين أنها لا تعمل وحدها وإنما تعمل بسر الله فيها وإرادة الله هي التي تمنحها القدرة على التأثير فيقول:

"إن في تأليف الكون إعجازاً باهراً بحيث لو فرضنا ، فرضاً محالاً، أن كل سبب من الأسباب الطبيعية فاعل مختار مقتدر لسجدت تلك الأسباب جميعها، بكمال العجز ، أمام ذلك الإعجاز قائلة: (سبحانك .. لا قدرة لنا إنك أنت العزيز الحكيم)[45] ، ثم يقول: (إن الذي خلق عين البعوضة هو الذي خلق الشمس أيضاً)[46] . ويقول: (والذي نظم معدة البرغوث هو الذي نظم المجموعة الشمسية أيضاً.)[47]"

هكذا يرى النورسي ويرى معه أصحاب البصائر غير أن العميان لا يبصرون والموتى لا يسمعون .

---

45 الكلمات ص600
46 الكلمات ص600
47 الكلمات ص600

فهل تتحرر أمتنا من هذا الادعاء الضال وتعود إلى رشدها ونهاها فتهتدي بكتاب الوجود والخلود وتستلهم آراء وأفكار الهداة والمهتدين وهي تتطلع إلى صحوة جديدة في مجال التعليم على مشارف القرن الواحد والعشرين؟ وهل يتألق وعينا من خلال نور الرسالة وهداية الرسول ونتصدى لأفكار هؤلاء إبراءً للذمة وحماية للأمة وتطهيراً للفكر من خرافات ترتدي ثوب العلم ومخرفين يلبسون مسوح الناصحين؟

حقيقة التوحيد كأساس ومنطلق للتعليم والتربية

إذا كانت التربية عملية تنتقل بها الخبرة البشرية من السابق إلى اللاحق عبر الأجيال ، فإن التعليم هو طريق النقل وأسلوبه وهو دور المربي، وبذلك تتحول التربية إلى وعاء تستخدمه الأمم لتضمنه محتوىً ترتضيه من ثوابتها ، ثم تنقله إلى الأجيال لتحقق عن طريقه امتداداً حضارياً ولتأمن على هويتها التي ارتضتها فوثقتها في دساتيرها وفي عقل المجتمع وضميره .

وفي الأمة المسلمة تحديداً فإن الخط الأساسي الذي يخطه الإسلام ليترك معالمه في شخصية الإنسان والناشئ بصفة خاصة هو خط التوحيد:

[وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون [48]]

فالله تعالى هو خالق الكون ورب الناس وهو إلاههم الذي يملك نواصيهم ، وينبغي عليهم أن يلتزموا أوامره وينتهوا عما نهوا عنه، وللناس في كل صفة من صفاته سبحانه وتعالى أو اسم من أسمائه ، مَعْلماً من معالم التصور العقدي يؤسس إطاراً مرجعياً في عقل الجيل الجديد ، يعينه على التوافق مع ذاته ومع البيئة من حوله ويرتبط بهذا الأصل فهم الناشئ منذ وقت مبكر لهدف وجوده على هذه الأرض ، فهو لم يأت عبثاً إلى هذا الوجود، وإنما هو خليفة في الأرض يستخدم طاقاته ومواهبه في البناء والتعمير، مستهدياً بما شرعه الله له من السنن والقوانين يقول تعالى:

48 –سورة التوبة 31

[وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما أتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم][49]

لذلك يدرب الطفل المسلم منذ سنيه الأولى على السلوك الإسلامي، وننقل إليه القيم تدريجياً، حتى إذا ما وصل إلى سن التكليف يكون قد تطبع بطبائع المكلفين فيسهل عليه الأداء طواعية واختياراً .

وفهم الناشئ لحدود الحياة يجب أن يرتبط بأصل التوحيد منذ بداية الحياة البشرية في تصور المسلم، وهذه الحياة بدأت في صورتها المادية منذ نفخ الروح في آدم عليه السلام ، وتجارب الإنسانية التي تضمنها القرآن رصيد ملزم للناشئين في أحوالهم وتقلباتهم ، كما أن الحياة التي نعيشها إنما هي أدوار وأطوار ، فطوراً في الرحم وطوراً على الأرض وطوراً في القبر وآخر في المحشر ونهايتها إلى خلود لا إلى فناء فإما جنة وإما جحيم بعد حسابها على ما قدمت ، ومن هنا يرتبط فهم الناشئ لحدود الحياة بأصل التوحيد الذي تربى عليه ، يقول الله تعالى:

[يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى، ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً، وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحي الموتى وأنه على كل شيء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور][50]

49 –سورة الأنعام 165
50 الحج 5–7

فهذا التوجيه يرسخ في عقل المسلم وفي تصوره أن الحياة ممتدة، وأنها لا تنقطع بعوارض الموت، فليس الموت إلا مرحلة من مراحلها وطوراً من أطوارها وهذا في الحقيقة بعد جديد يعين المسلم ويساعده على أداء التكاليف وتحمل مشقات الحياة بصبر وأمل ، ويجعله صلباً في مواجهة الصعاب مهما كانت شديدة، ويزوده بطاقات نفسية تشد من عزمه وتقوي من إرادته في فعل الخير ومقاومة الشر طلباً للثواب وانتظاراً للجزاء.

ومن المعروف أن الحياة لا تسير على نهج واحد ، ولا تلتزم بوتيرة واحدة، وأن الإنسان يحياها متقلباً بين الطفولة والشباب والرجولة والشيخوخة والأفراح والأتراح والقلق والطمأنينة، لذلك تضمن القرآن بجانب التوجيهات السابقة ، توجيهات أخرى تتناسب مع حالات التقلب التي يعيشها الإنسان في مراحل عمره المختلفة، ومن هنا يكون للخوف مكانه وللرجاء مكانه وللترغيب مكانه وللترهيب مكانه، قال تعالى:

[إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون][51]

وقال تعالى:[الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب][52]

وقال تعالى:

[تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون][53]

ولم تكن هذه التوجيهات مجرد توجيهات نظرية لا واقع لوجودها، وإنما هنالك نموذج رائع ورفيع ، وفيه تتمثل القدوة الحقيقية التي يقتدي بها المسلم ، ويربط حياته كلها متأسياً بها

---

51 الأنفال 2
52 الرعد 28
53 السجدة 16

، لأنها جسّدت وحققت مراد الله من خلقه في أحكم وأدق صورة للعبودية الصادقة ، ذلكم هو رسول الله ρ .

ولذلك ينبغي أن يؤدي هذا النموذج دوره دون منافس خلال فترة التشكيل العقلي والوجداني بأبعاده الثلاثة: التصوري والسلوكي والعاطفي، وتستمر هذه الفترة إلى سن التكليف حتى تكون الهوية في أمان من الأخطار المضرة والتداخلات التي تحدث تميعاً في الشخصية وازدواجاً في السلوك، وببراعة الأديب ونورانية العارف ، يلتقط النورسي صورةً لخط التوحيد الموصول في هذا العالم الكبير ، وكأنه يسمع لسان الغيب ويرى بصماته في عالم الشهادة ، وهي تهتف بدلائل التوحيد وتشهد بلسان الوجود شهادة الحق وتخاطب الإنسان بلسان المكان ولسان الزمان قائلة: [فاعلم أنه لا إله إلا الله] [54] الذي دل على وجوب وجوده ودل على أوصاف جلاله ، وجماله وكماله ، وشهد على وحدانيته العالم ، أي هذا الكتاب الكبير بجميع فصوله وصحفه وسطوره وجمله وحروفه ، وهذا الإنسان الكبير بجميع أعضائه وجوارحه وحجيراته وذراته ، وأوصافه وأحواله أي هذه الكائنات بجميع أنواع العوالم تقول: لا إله إلا الله ..

وبأركان تلك العوالم: لا خالق إلا هو..

وبأعضاء تلك الأركان: لا صانع إلا هو..

وبأجزاء تلك الأعضاء: لا مدبر إلا هو..

وبجزئيات تلك الأجزاء: لا مربي إلا هو..

وبحجيرات تلك الجزئيات: لا متصرف إلا هو..

وبذرات تلك الحجيرات: لا خالق إلا هو..

وبأثير تلك الذرات لا إله إلا هو..

---

54 محمد 19

فتشـهد الكائنـات علـى أنـه هو الواجب الوجود ، الواحد الأحد بجميع أنواعها وأركانها وأعضـائها وأجزائهـا وجزئياتهـا وحجيراتهـا وذراتهـا وأثيرهـا ، إفراداً وتركيبـاً متصـاعداً بتركيبات منتظمة رافعات أعلام الشهادة علـى وجوب الصـانع الأزلـي ، والكائنـات كل واحد من مركباتها وأجزائها تشهد بخمس وخمسين لساناً بأنه واجب الوجود ، الواحد الأحد."[55]

وهكذا يلتمس النورسـي من أنـوار التوحيد خيوطـاً مضيئة ، تكشف طريق الحق وتيسر سبل الهداية للسالكين ، وترسم أمام المربين ملامح منهج فريد في التربية والتعليم ، يمزج بين جمال الصنعة ودقة الصانع ، ويضع القسمات المشرقة لنوع من التربيـة لا يترك مجالاً من المجالات إلا ويوظف كل ما فيه لخدمة خط التوحيد كأساس ومنطلق للتربية والتعليم وصياغة الإنسان . وتلك نقلة فكرية وحضارية في آن معاً ، تربط في تناسق فريد من المنظومـة الكونيـة والمنظومة الإنسانية وبين مفرداتها لتبدو الذات أو الأنـا ضـئيلة ضـعيفة عـاجزة تسلم لخالقها وصـانعها ومبدعها ، فتسلم بـالركون إليـه والاستسلام فـي كنفـه مـن سلبيات التمركـز حـول الذات، والتمركز حول الهوية، وبذلك تسلم في عقلها ووجدانها من الشذوذ في الفكر والعلة في السلوك .

وذلك كلـه لا يتـأتى إلا عندما تكون ذمـة المجتمـع واحدة ، تتضـافر مـن خلالهـا كل المؤسسات على اختلاف وظائفها، لتستقي وتتلقى من مصدر واحد وتصب في مجرى واحد ، ويتوازى أداؤها في عقول ووجدان النشء الجديد فيتربـى علـى قيم التوحيد، ويتشـرب روحـه الذي يسري في هذا الوجود، فينسجم بذلك مع نفسه ومع البيئة المحيطة به ومـع الكـون والحيـاة من حوله . وبـذلك ينسحب الانحـراف ويتـوارى الشذوذ والنشـاز، وتسلم الأجيـال مـن كـوارث الانفصـام والانفصـال التـي تعـاني منهـا مجتمعـات اليـوم حـين شـردت بفكرهـا وقلبهـا عـن الله

55 المثنوى العربي ص108

الواحد الأحد ، ومن ثم بدأت تدفع فاتورة الحساب دموعاً ودماءً وقلقاً وخوفاً واكتئاباً وهروباً من الحياة بالمخدرات والمنومات والمسكرات حيناً وبالموت انتحاراً حيناً آخر .

وصدق الله إذ يقول:

[ومن أعرض عن ذكري ، فإن له معيشة ضنكاً ، ونحشره يوم القيامة أعمى][56]

56 طه 124

الربط بين عالم الخلق وعالم الأمر

في فكــر الناشـئــــة والمتعلميــن

إذا كانت الحياة بمادياتها والوجود في شكله المادي والكون في مظاهره المحسوسة تمثل عالم الخلق ، فإن نصوص الشريعة تمثل عالم الأمر التكليفي. وإذا كانت الحياة والكون يمثلان جانب المادة في هذا الوجود ، فإنهما في الوقت ذاته صادران عن عالم الأمر الإلهي الذي به ومنه برز الوجود من العدم، والله تعالى في عقيدة المسلمين الصحيحة له الخلق والأمر ، فكلاهما مظهران من مظاهر تجليات رحمته في الخلق والإيجاد ، ودليلان من دلائل وحدانيته التي تفرد بها سبحانه في السموات والأرض. ومن هنا تطرد من الذهن كل سخافة تحاول فصل الوجود شطرين ، وتقسيمه إلى عالمين: أحدهما لله والآخر لقيصر كما يدعي الآخرون ويظنون، فلا يمكن الفصل بين عالمين كلاهما من أمر الله: عالم الخلق الذي جاء إلى الوجود بالأمر كن، وعالم الأمر التكليفي الذي أراد الله به أن يكرم الإنسان، وأن يحترم إرادته في الحرية والاختيار ، وأن يباهي به الملائكة عندما يجيء العبد إليه طائعاً مختاراً ، وعندما يمارس إرادته الممنوحة له من الله أصلاً في الاختيار الحر الصحيح حين يختار جانب العبودية ، ليتحول بها وعن طريقها إلى سيد في الوجود، وهذا الربط بين هذين العالمين ليس نتاج فكر صحيح فقط، إنما هو إقرار بحقيقة ، واعتراف بواقع يشهد به كل موجود في هذا الوجود، ويصدق على تلك الشهادة منطق الوحي المعصوم وهو يجمع في بيان معجز متألق بين نقطة البدء والمنتهى:

(إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ، يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، ألا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين[57])

فالبدء منه والمنتهى إليه ، وبين البدء والمنتهى يبدو الوجود بمظهريه المادي والمعنوي وكأنهما وجهان لنعمة واحدة ، هي نعمة الله بإيجاد الخلق ، ونعمة الله الرحمن بإنزال الكتاب الذي كانت منه وإليه ترجع شريعته ، باعتباره الوعاء الذي له الإحاطة والاحتواء:

(الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان ، الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا تطغوا في الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ، والأرض وضعها للأنام ، فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام ، والحب ذو العصف والريحان فبأي آلاء ربكما تكذبان)[58]

وقال تعالى:

(الله الذي خلق السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر ، يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون)[59]

فهل يبقى بعد هذا الربط الرائع والمزج الذي لا يمكن أن ينفصل أبداً هل يبقى بعد ذلك تعلّة لمتعلل؟ وهل يستطيع عقل محترم أن يفصل تحت أي حجة مدعاة بين هذا الكون وبين إرادة مدبره ومكونه والقائم والقيوم على كل أمرٍ فيه؟ ومن هنا يرى الباحث النـزيه أن كل محاولة تقطع الظواهر عن أسبابها الأصلية، وتفصل بين الدين والعقل ، وتتناول علوم الكون وعلوم الحياة مبتورة عن أصلها التي منه صدرت ، وعن إرادته تكونت ، وبعلمه وحكمته أخذت شكلها ومظهرها يرى الباحث المتجرد أن هذه المحاولات إنما هي تزييف للحقائق

---

57 الأعراف 54
58 الرحمن 1-13
59 الأعراف 54

العلمية، ومجافاة للواقع، وإنكار لا مبرر له، وخيانة للضمير الإنساني، وتضليل للعقل، وتدليس وتزوير لشهادة تنطق بها ذرات الكيمياء ومظاهر الطبيعة ، ويهتف بها لسان الوجود .

والمنطق الوحيد السديد أن نرد الأشياء لأصلها، وألا نلقي بالاً لتلك الأصوات الشاذة التي تريد من البشر باسم العقل وحرية البحث أن يفقدوا عقولهم، وأن يتحولوا إلى آلات تغرق في التفاصيل الجزئية، وتعمى عن الحقائق الكبرى التي تبهر العقول والألباب، وتوقظ في النفس والفطرة مظاهر الخضوع والإعجاب بفاطر السموات والأرض ومبدع الوجود والكون.

"فالنورسى لا يرى شيئاً أشد سقوطاً وأشنع انحداراً، من أن يتجرد رأى الإنسان في هذه الخليقة من أى معنى إلهي، لذلك فليس من شأننا نحن المسلمين، أو من شأن مفكرينا، أن نعقل حقائق الأشياء بالعقل المجرد وحده كما يريدنا الغربيون أن نفعل، بل بالعقل المستضيئ بالإيمان، وبالبصيرة المستنيرة بالقرآن."[60]

ويربط بعقله العملاق، وبصيرته النافذة، بين عالم الخلق وعالم الأمر في وضوح لا يشوبه غموض ، ويرى الاثنين معاً: عالم الخلق وعالم الأمر شريعتين إحداهما تنظم وتحمي حركة الإنسان، والأخرى تنظم وتضبط حركة الكون ، فيقول الإمام النورسي: "الشريعة اثنتان :

إحداها: هي الشريعة المعروفة لنا ، التي تنظم أفعال وأحوال الإنسان فذلك العالم الأصغر والتي تأتي من صفة الكلام .

الثانية: هي الشريعة الكبرى الفطرية، التي تنظم حركات وسكنات العالم ذلك الإنسان الأكبر، والتي تأتي من صفة الإرادة وقد يطلق عليها خطأً اسم الطبيعة، والملائكة أمة عظيمة

---

60 هوامش على فكر النورسي وسيرته ، ص 21 ، بحث أديب إبراهيم الدباغ ، ضمن ابحاث سعيد النورسي في مؤتمر عالمى حول تجديد الفكر الإسلامي

هم حملة الأوامر التكوينية وممثلوها وممتثلوها تلك الأوامر الآتية من صفة الإرادة والتي تسمى بالشريعة الفطرية.[61] "

وضوح الرؤية وإزالة اللبس والخلط بين عالم الأشياء
وعالم الأفكار والإفادة من فكر النورسي في هذا المجال

كثيرون هم أولئك الذين يتنادون بضرورة الخروج من مأزق التخلف، وكثيرون هم أولئك الذين يطالبوننا بضرورة الالتحاق بذيول مدنية العصر والانسحاق في أشيائها والعبّ من منابعها واللهث وراء كل جديد يظهر هناك .

وغريب أمر هؤلاء الذين التوت أعناقهم نحو الغرب، فوقعوا في خطأ التعميم بين الشيء والفكرة ، ويريدون منا أن نأخذ من أوروبا كل ما يصدر عنها، وكل ما ينتج فيها ، وأن نربط وجودنا بوجودهم، وأن نحيا كحياتهم، وأن نسلك مسلكهم، حتى لو دخلوا جحر ضب كما جاء في الحديث الشريف.

وهذه الفئة ترى أنه من الضروري أن ننفتح على العالم بكل ما فيه من تيارات ومذاهب، لأنه وفي ظل الظروف الحاضرة لم تعد العزلة ممكنة خصوصاً والعالم قد أضحى قرية صغيرة، ولم يعد من الممكن حصر الأفكار في دائرة محدودة، أو عزل التيارات في بيئة دون بيئة، وبصرف النظر عن صحة أو خطأ هذه التيارات، وبصرف النظر أيضاً عن مدى توافقها أو تناقضها مع بيئتنا وديننا، المهم أنها إفرازات لحضارة سائدة سيطرت على البر

61 المكتوبات ص613

والبحر والفضاء ، ونحن على الأقل نعيش عالة على وسائلها ونستخدم الكثير من أدواتها، ذلك فضلاً عن وقوعنا تحت دائرة نفوذها وسيطرتها، وبالتالي فلا يمكن الفصل بين الشيء والفكرة لأن الآلة حين نستوردها تجلب بالضرورة أفكار صانعيها وتحمل طابعهم، وما الأفكار إلا إفرازات مادية كيميائية "في نظرهم" لما يتناوله الإنسان في حياته اليومية من طعام وشراب، ولم يتوقف الأمر في عرض وجهة النظر هذه عند ذلك الطرح الهادئ ، وإنما يتخطاه ويتعداه إلى درجة من التشنج الحاد يتهمون فيها الخصوم والمخالفين لهم في الرأي بأنهم ظلاميون ورجعيون، ومتخلفون، ومتطرفون وإرهابيون، يتوجون من أنفسهم حراساً على الثقافة وأوصياء على العقل يضعون عليه القيود ويكبلونه بأغلال الماضي البعيد .

كما يرون فيهم عقبة في سبيل تقدم الأمة، ونمو المجتمع، لأنهم لا يحاولون إعمال العقل في الوصول للأسباب الحقيقية لأية ظاهرة، وإنما يسعون بكل ما يملكون من خيال واسع لإيجاد تعليل وهمي غير واقعي، يعلقون عليه الأسباب بوعود وهمية في عالم وهمي عبر غيبيات موهومة."[62]

هذا مجمل مختصر لما يقوله العلمانيون ويرددونه دائماً في كل مناسبة وأحياناً بغير مناسبة . فهل الأمر كذلك فعلا؟ أم أن هناك لبساً وخلطاً في الفهم يصل أحيانا إلى مستوى التدليس والخيانة للفكر والعقل السليم .

ونحن لا نتهم هؤلاء بالمؤامرة، فالمؤامرة تكون حيث يكون الخفاء والسرية والتآمر تحت جنح الظلام، لكن هؤلاء يعلنون عن أنفسهم في وضوح يشهده كل ذي عينين ، ويسمع به كل ذي أذنين .

---

62 راجع فصل حماية الذات بين حراسة الثقافة وقيود العقل ، ص29 من كتاب دعوة إلى التأمل للدكتور إبراهيم أبو محمد .

وهم يشكلون فصيلاً كبيراً من المثقفين والكتاب، ويشغلون بفكرهم هذا مساحة واسعة من أجهزة الإعلام، وامتلأت بكتاباتهم صحف ومجلات متعددة. غير أننا نلحظ نوعاً من إفساح المجال أكثر لعدد من هؤلاء بحجة محاربة التطرف وحصار ظاهرة التشدد والعنف في بعض المجتمعات.

كما نلحظ أن هؤلاء تصيبهم حالة من الهلع الفكري، والصرع العقلي، كلما تطرق الحديث إلى الإسلام بصيغته الربانية الشاملة، وكلما تطرق الحديث أيضاً إلى البعد الغيبي وما له من تأثير في تقويم الاعوجاج، ومقاومة الانحراف، واعتدال الحياة، وهي ظاهرة أقرب إلى المرض منها إلى العافية النفسية والصحة العقلية، مما يجعل أصحابها يخرجون عن مألوف القيم المعروفة في أدب الحديث والحوار العلمي، فيستعملونه في وصف خصومهم عبارات من قاموس اللافتات الجاهزة التي تستعمل عادة في إسكات الخصوم، واستعداء السلطة عليهم، وإرعابهم بتهم التطرف والأصولية والإرهاب.

وإذا كان هؤلاء يجيدون قراءة النصوص لدى الغرب بانبهار وإعجاب شديدين، ويتلقونه بعقول ملجمة، فلهم في ذلك مطلق الحرية، لكن قراءة النصوص وحدها لا تكفي لصحة النظريات وصلاحية تطبيقها على كل أحد وفي كل بيئة، وإنما لا بد مع قراءة النصوص من قراءة الواقع بدقة متناهية، وكذا دراسة الظواهر عندنا وعندهم، وحصر مكوناتها ومقوماتها، ومعرفة دوافع انتشارها، وتحديد اتجاهاتها وأبعادها مما يتجاوز التوصيف المجرد ليدخل في نطاق التعليل والتحليل .

وتلك مهمة افتقدناها عندنا، وكانت الجهود المبذولة فيها فردية شخصية، بينما قامت بها هناك في أوروبا والغرب عموماً مؤسسات للدراسات الإنسانية تخطت جهود الأفراد، وقدمت دراساتها لجهات مسئولة، ووضعت تحت تصرف المفكرين والمصلحين وأصحاب القرار، وكانت نتائجها منذرة ومحذرة وداعية:

منذرة بإصابة الحضارة الغربية في جناحيها شرقاً وغرباً بحالات جزر وانكسار، وتعرض خلاياها في الظاهر والباطن لشيخوخة مبكرة، مما ينذر بموت محقق وأفول قريب .

ومحذرة من سيادة مناهج اللذة، وإثارة الشهوات، وتملق جوانب الحيوان في الإنسان .

وداعية للبحث السريع عن منهج بديل يعيد للمجتمع أمنه واستقراره، ويعيد للناس طمأنينتهم وهدوءهم النفسي، بعد القلق والتمزق والضياع.

وإذا كان رصد الواقع، وقراءة الأحداث، ضرورتين بجانب قراءة النصوص في التدليل على صحة النظرية أو خطئها، فهلا بدأتم أيها العلمانيون الأوفياء لسادتهم بقراءة الواقع والأحداث في مجتمع حضارة الغرب التي تريدون أن نلتحق بها وأن ننسحق فيها؟

نعم هذه الحضارة قدمت للإنسان إنجازات ضخمة في عالم المادة، وربما برمجت له كل شيء عن طريق الكمبيوتر، لكنها لم تملأ فراغه الروحي، ولم تهذب عمقه الوجداني، ولم تطبع مشاعره بالطابع الإنساني المأنوس لماذا؟ لأن هناك فرقاً شاسعاً بين عالم الأفكار وعالم الأشياء، بين الوسائل والغايات، بين الفكرة والآلة، والآلة وسيلة، والوسائل محايدة، هكذا خلقها الله سبحانه وتعالى.

وهم هناك توصلوا لهذا الفرق، ونحن هنا لا زلنا نخلط بين الشيء والفكرة، وبين مناهج العلوم التطبيقية ومناهج العلوم الإنسانية. هم هناك قد تنبهوا لهذا الفرق منذ زمن بعيد، ومن هنا كان الصراع حول الإيديولوجيات، ولم يكن صراعاً حول المنهج العلمي، فكل فريق كان ولا يزال يحاول الحصول على أسرار تكنولوجيا الطرف الآخر، ويبذل جهوداً مضنية في التصنت والتجسس على أسرار مبتكراته ومختبراته ومخترعاته، ولكنه يحارب أفكاره، ويمنعها من الانتشار في مناطق نفوذه، ويضع الأسوار والقيود عليها، ويدخل أحياناً في حروب غير مباشرة لمنع انتشار أفكاره ، وكل منهما يرى من الضروري حماية ذاته وتأمين

ثوابته ومناهجه الاجتماعية والثقافية من العبث أو الاجتياح ، والعلمانيون عندنا يرددون أن الثقافة بغير وطن وأن الفكر بغير هوية .

ثم لماذا تستبيحون لأنفسكم حق إهانة أمتكم وخيانة ثوابتها، وتنكرون على الإنسان السوي حقه في أن يتساءل عن بدايته ونهايته ومصيره ومنتهاه في ظل المنهج الذي يحكمه؟ وأين يجد الإجابة الشافية المقنعة التي تجعل من وجوده الموقت في عالم الشهادة سبباً وتمهيداً لوجوده الدائم في عالم الخلود ، فإن فعل خيراً جنى خيراً ، وإن شراً فشر .

أين يجد هذه الإجابة إن لم تكن في البعد الغيبي؟ وإذا كانت هذه المعادلة تحفظ على الإنسان ذاته ، وترقي وجوده ، وتحميه من التمزق والضياع، أفيكون الإيمان بها أو الحديث عنها هروباً من الواقع؟ وتعليقاً للأسباب على قوى غير محسوسة وملموسة جنوحاً في الخيال ، وإهمالاً لإعمال العقل ، وتخديراً للشعوب بوعود وهمية في عالم وهمي؟

وهل يكون من الإنصاف أن تكال الاتهامات للغير بهذا السيل الجارف وبلا دليل؟ وهل الخلاف في الرأي أو حتى في الفكرة والمبدأ، يلغي الآخر ويعطيك الحق في قذفه وإرهابه وتهديده واستعداء السلطة عليه؟ أين إذاً عدالة الحكم على الأشياء؟ وأين نزاهة البحث وأدب الحوار وحق المخالفة؟ ألا ما أتعس العقل الذي فقد التعقل .

أليس من الخير للإنسان أن يظل على الأرض وهو إنسان من أن يصعد إلى القمر وهو لص ، قد سرق الشعوب ، واستغل خيراتها ، وأباد الآلاف من أبنائها؟ أليس من الخير للحياة أن تضاء مشاعر الإنسان ولو بشمعة من أن ينطفئ قلبه وحسه ومشاعره ، ولو أضيئت الدنيا كلها من حوله بكل مصابيح الكهرباء .

دعوتكم إذاً أيها المفتونون تحمل من الخطأ أضعاف أضعاف ما تحمل الصواب، وبخاصة أنها لم تفرق بين الإنسان والآلة ، وبين الشيء والفكرة، وبين التقدم في مجال العلوم التطبيقية وبين مناهج العلوم الاجتماعية، التي تشكل فلسفة الحياة لدى حضارة الغرب.

ودعوتكم إذاً أيها المفتونون تتسم بفقدان الرؤية العلمية ، لأنها تفتقد حاسة التمييز بين ما يوافق حياتنا وبيئتنا وبين ما يناقضها .

نحن نحتاج الآلة ، ونحتاج إلى التقدم التقني ونسعى للحصول عليه، ولكن الغرب هو الذي يحول بيننا وبينه، ويريد أن يصدر إلينا فلسفته ونمطه الثقافي والاجتماعي ، حين نستقبل كل شيء ، "كما يريدون" دون فرز دقيق ، وإذا فعلنا ذلك فإننا نكون قد أدخلنا أنفسنا تحت ضغط التجارب ومجازفات الصراع ، ونكون قد تركنا يقين ما عندنا لندخل في بديل عنه ما زال تحت دائرة الظنون والأوهام والهوى .

(إن يتبعون إلا الظن ، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً ، فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ، ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بمن اهتدى) [63] .

---

63 النجم 28-30

التصدي لطرح العلمانيين في جانب التعليم على ضوء فكر النورسي

ولقد حذّر النورسي من هذا الخلط ، وخاطب أوربا والمفتونين بها، والمهزومين أمام بريق مدنيتها الخدّاع قائلاً:

"فيا أوروبا ما ورطك في هذا الخطأ المشين إلا ذكاؤك الأعور أي ذكاؤك المنحوس الخارق ، فلقد نسيت بذكائك هذا رب كل شيء وخالقه إذ أسندت آثاره البديعة إلى الأسباب ، والطبيعة الموهومة، وقسمت ملك الخالق الكريم على الطواغيت التي تعبد من دون الله ، فانطلاقاً من هذه الزاوية التي ينظر منها دهاؤك الأعور ، يضطر كل ذي حياة وكل إنسان أن يصارع وحده ما لا يعد من الأعداء ، ويحصل بنفسه على ما لا يجد من الحاجات ، بما يملك من اقتدار كذرة ، واختيار كشعرة، وشعور كلمعة تزول وحياة كشعلة تنطفئ ، وعمر كدقيقة تنقضي ، مع أنه لا يكفي كل ما في يده لواحد من مطالبه فعندما يصاب ، مثلاً ، بمصيبة لا يرجو الدواء لدائه إلا من أسباب صم حتى يكون مصداق الآية الكريمة:

(وما دعاء الكافرين إلا في ضلال[64])

إن دهاءك المظلم قد قلب نهار البشرية ليلاً ، ذلك الليل البهيم بالجور والمظالم ، ثم تريدين أن تنوري ذلك الظلام المخيف بمصابيح كاذبة مؤقتة..!

هذه المصابيح لا تبتسم لوجه الإنسان ، بل تستهزئ به ، وتستخف من ضحكاته التي يطلقها ببلاهة وهو متمرغ في أوحال أوضاع مؤلمة مبكية!

---

64 الرعد 14

"فكل ذي حياة في نظر تلاميذك ، مسكين مبتلى بمصائب ناجمة من هجوم الظلمة، والدنيا مأتم عمومي والأصوات التي تنطلق منها نعيات الموت ، وأنات الآلام ونياحات اليتامى"[65].

"إن الذي يتلقى الدرس منك ويسترشد بهديك يصبح فرعوناً طاغية، ولكنه فرعون ذليل ، إذ يعبد أخس الأشياء ويتخذ كل شيء ينتفع منه رباً له.

وتلميذك هذا متمرد أيضاً ولكنه متمرد مسكين إذ لأجل لذة تافهة يُقبِّل قدم الشيطان ولأجل منفعة خسيسة يرض بمنتهى الذل والهوان وهو جبار ولكنه جبار عاجز في ذاته لأنه "لا يجد مرتكزاً في قلبه يأوي إليه. إن غاية ما يصبو إليه تلميذك وذروة همته: تطمين رغبات النفس وإشباع هواها."[66]

هكذا يلقي بديع الزمان ضوء فكره الثاقب على أوروبا وتلاميذها، ممن يمموا وجوههم شطرها، والتوت أعناقهم نحوها، فيظهر عوارهم، ويكشف خباياهم، ويفضح سريرتهم، ويحبط فكرتهم، ويقتل بحرارة منطقه وقوة حجته غرورهم وادعاءهم، ثم يبايع تلميذ القرآن في مقابل هؤلاء خليفة في الأرض، يقيم العدل، وينصر الحق، ويرقى الوجود، ويحيا لربه.

دور القيم الإسلامية في حماية المجتمع من التحلل الحضاري

وأثر النورسي في إحياء هذا الدور

---

65 اللمعات ص 180-181
66 اللمعات ص 181

القيم الإسلامية بجانب كونها أوامر إلهية يجب الامتثال لها، والحفاظ عليها، إلا أنها تؤدي في الوقت نفسه وظيفة اجتماعية هامة، فهي بمثابة جهاز المناعة المكتسبة الذي يحمي جسد الأمة من التآكل، ويحفظ الكيان العام من الجراثيم الاجتماعية والاقتصادية والنفسية التي تنخر في عظام المجتمع، وتعرضه لعمليات التفكك الحضاري والتحلل العام، ومن ثم يكون الضياع والفناء والهلاك.

كما أنها تخلق في الإنسان بعد الممارسة، ما يسمى بالضبط الإرادي لدى الفرد والمجتمع، وهذا ما تقصر دونه كل القوانين والتشريعات الأرضية.

فالقوانين والتشريعات الأرضية تحاول حماية الفرد والمجتمع عن طريق الضبط القهري الذي يتولد عادة عن الخوف من العقاب والمؤاخذة، فإذا أمن الإنسان العقاب واستشعر أنه في مأمن من المؤاخذة فإنه قد يفعل ما يحلو له.

والقوانين تحمي الحق الموجود، ولكنها تعجز عن إيجاد الحق المعدوم بحكم التقادم أو النسيان مثلاً. وهي بحكم بشريتها لا تستطيع أن تتعامل إلا مع بعض مظاهر الجريمة دون أن تتسرب إلى داخل النفس بالعلاج الناجع، لأن القانون يتعامل مع الظواهر الخارجية للإنسان دون أن يتدخل في بواطنه بحسم الدوافع، وتوجيهها الوجهة النافعة.

كما أنها تهتم بمراقبة الأعراض دون الأمراض، فلا تنقطع لها جذور، بل تكثر وتزداد بمختلف الدوافع والأشكال ما دام أصلها يستوطن النفس ويستقر في داخلها. وهكذا تفوت عليها الحيل الخادعة ، وتمر أغلب أعمال العدوان والظلم بغير عقاب، لأن صاحبها استقام بشكله الظاهر وسلوكه الخارجي مع حرفية القانون ثم التف وتلوَّى حولها بالحيل الخادعة، حتى وصل إلى غايته الشريرة، وكان بمنأى عن الحساب والعقاب.

والقوانين الوضعية حين تتعامل مع الإنسان تقف منه عند حدود إصلاح المظهر ، ولا تتوجه أو تتدخل لإصلاح الأعماق والوجدان . فهي مثلاً لا تعاقب على النوايا السيئة ، ما دامت الأفعال مشروعة في مظهرها الخارجي . وهي نظراً لقصور أدوات الرقابة فيها لا

تمس من الحياة إلا قشرتها ، ولا تعالج إلا جنباً منها ، ومن ثم يستشري الفساد والشر فيما وراء القشرة حتى يعم الحياة فيعديها .

ومن هنا تفشل هذه القوانين في التعامل مع الكيان الإنساني ككل، وتبقى الحياة بحاجة ماسة إلى تشريع يتناول الظاهر والباطن والسطح والأعماق ، يتناول الظاهر بفرض الروادع عن طريق وسائل العقاب القانونية ، ويتناول الباطن بالإصلاح والتهذيب والتربية ، ويغرس في القلب والوجدان إحساساً فياضاً برقابة المشرع .

وهذا كله لا يتأتى بغير الدين ، لأن عقيدة المسلم تفرض عليه بحكم الإيمان والإحسان رقابة تجعل المرء يفكر ويتصرف وكأنه "يرى الله" ، فإذا قصرت أدوات البصر والإدراك الحسي لديه عن حقيقة الرؤية ، فهو يعلم بيقين دينه أن الله تعالى يراه ويسمعه ويرقبه ويطلع منه على سره ونجواه وظاهره وباطنه ، وهذا هو الضبط الإرادي الذي تنفرد به شريعة الإسلام وتمتاز ، فهي تزاوج بين رقابة الظاهر بتقرير الحدود التي تقتلع جذور الإجرام من النفس البشرية ، وتحقق الردع لكل من تسول له نفسه العدوان على الفرد والمجتمع ، وبذلك تجفف منابع أمهات الجرائم التي يتولد منها ويتفرع عنها ترويع الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم ، كما أنها لا تكتفي بذلك فقط في معالجة ظاهر الحياة ، وإنما تعطي الحاكم المسلم البصير بأحكام دينه والحريص على حماية أمته مساحة واسعة من التعازير، يستطيع بها أن يعالج كل جنحة أو مخالفة بما يناسبها من العقاب بعد النظر فيما يترتب عليها من الفساد أو الضرر .

هذا هو جانب إصلاح الظاهر ، لكن الإسلام لا يقف في توجيهاته عند إصلاح الظاهر فقط ، وإنما يتناول بالتربية والتهذيب نفس الإنسان من الداخل عن طريق الإحساس المستمر برقابة الله له ومعرفته لسره ونجواه، وهذا الإحساس بالحضور الإلهي حين يصبغ الشعور والفكر، ويسيطر على التصرفات والسلوكيات يجعل المرء يعيش في جو من المراقبة الدائمة

التي تحميه من ضعف نفسه وتحميه من الإغراءات الخارجية ، كما تحميه من المجتمع حوله، ومن شرور كثيرة تموت في مهدها بتأثير العقيدة الحية التي تذكر الإنسان دائماً وتغرس في حسه وضميره بأن الله يراه.

ويستمر هذا الشعور داخل النفس ، ويبقى بتأثير الاستمرار في أداء الفرائض التي تزكي النفس وتطهرها بشكل دائم، وتجعلها في حالة من الترقي والصعود المستمر ، فلا تنمو لبواعث الشر جذور، وبذلك يستقيم الفرد على منهج دينه ، وتسلم شخصيته من شرور الانفصام والازدواجية التي تصيب الفرد ، فتنزع منه كل إحساس بأدنى مسؤولية تجاه نفسه وتجاه الآخرين .

وما يصلح به الإنسان وهو فرد ، هو ما يصلح به المجتمع أو الأمة، والقرآن الكريم لم يكتف في تربيته للإنسان بمجرد الترغيب في الخير بمنح الثواب عليه ، أو الترهيب من الشرور بوضع العقاب على فعلها ، وإنما عرض مع الترغيب والترهيب الآثار المدمرة لغياب القيم الإسلامية عن المجتمع ، وما لهذا الغياب من أثر في الإسراع بالسقوط والتفكك الحضاري للأمة ، وساق لذلك نماذج كي تبقى حية في الذهن والوجدان .

ومن هنا كان حديث القرآن عن الأمم السابقة ، وما حل بها من العقاب ، وقد تعرض من خلال نصوصه لحضارات بادت ، ووضح من خلال عرضه أسباب هلاكها ، وعرض أنواع الجراثيم التي تبيد الأمم والحضارات وتؤدي بها إلى الزوال والدمار ، حتى تتجنب أمتنا مسالكها، وحذر من السقوط في أسبابها ، وسد أمامها كل الطرق والأبواب والثغرات .

والقرآن في عرضه للأمم المختلفة والحضارات المتعددة والمتفاوتة ، لا بربطها بالزمان ولا بالمكان ، وإنما يكتفي بالإشارة إلى شيء من خصائص تلك الحضارات ، كما يقدم الحدث ، ويذكر من خلال العرض، الأسباب التي أفضت إليه مجردة عن الزمان والمكان ، ليثبت من

خلال ذلك ثبات السنن الاجتماعية والقوانين الإلهية التي يتعامل بها الحق سبحانه مع شتى الأجناس ، دون تفريق بين حضارة وحضارة أو بين جنس وجنس .

فإذا استجمعت أمة ما صفات الخير التي تنهض بها، وتبعت إرادتها، وترشحها للسيادة والقيادة ، فإنها تسود وتقود ، وإذا ارتكبت أمة ما مظالم معينة تسقطها عن مكانتها ، وتحرمها من توظيف ملكات وطاقات وقدرات أبنائها بالشكل اللائق ، واستثمار خبراتها بالأسلوب المناسب، طبقت عليها السنة الاجتماعية التي لا تتخلف ، ونالها قانون العقوبات الإلهي بما تستحق من التأديب والعقاب ، لذلك يرى مجدد العصر بديع الزمان النورسي:

"أن إحياء الدين إحياء للأمة وحياة الدين نور الحياة."[67]

فهل تحيا أمتنا بحياة دينها؟

وهل نحمي ما تبقى من كياننا في شخصية النشء بتكثيف دور القيم الإسلامية والتركيز على أهميتها في حماية مجتمعاتنا؟

إن هناك آلافاً من الشياطين المهتاجة تحاول إبعاد أجيالنا عن إسلامهم، وتسلك سبلاً جهنمية في صرفهم عن عقيدتهم ، وتحويل هذه العقيدة الحية إلى مجرد تراث أو آثار ، فهل سيخلو لهم الجو ليحققوا ما يقصدون؟ وهل سيتخلى الشرفاء عن دورهم في الذود عن دينهم وعقائدهم؟

وهل سيطول ليل الباطل وهل يبقى حبله ممدوداً بالشر أم سيأتي فجر جديد؟

خلف هذا الليل فجر   ليت هذا الفجر لاح

إن للقدر مفاجآت .

والله من ورائهم محيط .

---

67 المكتوبات ص 606

ضرورة حشد الطاقات والتصدي للأفكار العنصرية

في عقول الناشئة

في زحام الضجيج حول الوطنية والمواطنة والقومية، والأجنبي والوافد، يعلو في سماء أمتنا دخان كثيف يحجب الرؤية ، ويزكم الأنوف، وتحت هذا الدخان الأسود ، تعلو القبلية على المواطنة ، وتعلو المواطنة على الوطنية ، وتعلو القطرية على الوطنية ، وتعلو الفطرية على القومية ، ثم تكون الطامة الكبرى حين تعلو القومية على الدين .

ولسنا بالطبع ضد احترام الخصوصيات لكل شعب ، فالله قد خلق الناس من ذكر وأنثى وجعلهم شعوباً وقبائل ، ولكن ليتعارفوا لا ليتناكروا، وليتعاونوا لا ليتصارعوا ، ولسنا بالطبع ضد ولاء الإنسان لبني جنسه، أو لبني قومه، ولكننا نرفض القومية حين تطرح بديلاً عن دين الله.

والمتأمل الجاد في حياة أمتنا ، يجد الأهواء قد مزقتها، والعصبيات قد فتنتها ولعبت فتن الداخل والخارج بعقول أبنائها ، فقسمتهم بدل الأخوة إلى مواطن ووافد وأجنبي ، ونظر كل طرف إلى أخيه نظرة شك وارتياب، وغذيت وتغذى هذه الأحاسيس الشريرة الخاسرة لدى الناشئة وبعض المتعلمين ، وبالتالي اختلت موازين العدالة في التعامل بين أبناء الأمة الواحدة والدين الواحد .

ففي بعض البلاد ، ينظم السلم الوظيفي وفق بلد المولد حتى لو كان الإنسان يحمل جنسية السيد المطاع ، صاحب العيون الزرقاء والشعر الأصفر ، فمجرد معرفة أصل بلد المولد ، يتدنى الراتب وينخفض بعد أن كان في أعلى السلم الوظيفي ، بصرف النظر عن الكفاءات

والقدرات والمؤهلات العلمية ، بل إن التفاوت يحدث أحياناً بين أبناء البلد الواحد لاعتبارات لا يعرف المرء أصلاً لها ولا من أين جاءت .

والغريب العجيب أن ينعكس هذا الوضع على الجيل الجديد ، فيمتلئ بعض الشباب بغرور الثراء ، وينظرون إلى الزملاء والأقران نظرة ازدراء وتحقير لمجرد أنهم "أجانب وافدون" ، هكذا يكتب التصنيف في بعض الدول .

وإذا كانت أمتنا تعاني من هذه الأوضاع المختلة والمعتلة في بعض دولها، فإن هذه المعاناة إنما هي الثمرة المرة لسيادة الأفكار العنصرية على ميادين الحياة فترة من الزمن ليست قصيرة ، وهي أيضاً نتيجة لمد قومي عنصري ، نشأت جذوره بعيداً عن بيئتنا وأرضنا ، وقد طهرها الله برسالة الإسلام التي أرست قواعد الأخوة وبذرت بذور المحبة بين المسلم والمسلم وكرمت الإنسان بصرف النظر عن لونه أو جنسه أو حتى معتقداته .

ولقد تنبه مجدد العصر الإمام النورسي لخطورة هذه العنصرية ، فحاربها ووجه إليها كثيراً من سهامه الصائبة ، ودعا أتباعه ومريديه إلى نبذها وكراهيتها ، ولفت الأنظار إلى الجهات التي أثارت هذا الفكر ، وروجت له وصدرته إلى بلاد المسلمين ، فقال تحت عنوان المسألة الثالثة:

"لقد انتشر الفكر القومي وترسخ في هذا العصر. ويثير ظالموا أوروبا الماكرون بخاصة هذا الفكر بشكله السلبي في أوساط المسلمين ليمزقوهم ويسهل لهم ابتلاعهم."[68]

ثم يتابع النورسي ، وكأنه يرانا من وراء الغيب ، ويضطلع منا على ما نعانيه من تشتت وعداء لا مبرر له فيقول:

"إن التباغض والتنافر بين عناصر الإسلام وقبائله ، بسبب من الفكر القومي هلاك عظيم وخطب جسيم ، إذ أن تلك العناصر أحوج ما يكون بعضهم لبعض ، لكثرة ما وقع

---

68 المكتوبات 415

عليهم من ظلم وإجحاف ولشدة الفقر الذي نـزل بهم ، ولسيطرة الأجانب عليهم يقصد بالأجانب الاستعمار، كل ذلك يسحقهم سحقاً لذا فإن نظر هؤلاء بعضهم لبعض نظرة العداء مصيبة كبرى لا توصف ، بل إنه جنون أشبه ما يكون بجنون من يهتم بلسع البعوض ولا يعبأ بالثعابين الماردة التي تحوم حوله."[69]

ثم يخاطب أبناء تركيا بلد الخلافة وعاصمة المسلمين ، بعدما اغتالتها الأيدي الآثمة وحركت فيها نوازع القومية والعداء لكل ما هو إسلامي وعربي حتى حروف الهجاء فيقول:

"ليس بين أفراد الجنوب من يستحق أن يعادى حقاً، بل ما أتى من الجنوب إلا نور القرآن وضياء الإسلام الذي شع نوره فينا وفي كل مكان. فالعداء لأولئك الإخوان في الدين وبدوره العداء للإسلام ، إنما يمس القرآن وهو عداء لجميع أولئك المواطنين ولحياتهم ، الدنيوية والأخروية. لذا فإدعاء الغيرة القومية بنية خدمة المجتمع يهدم حجر الزاوية للحياتين معاً، فهي حماقة كبرى وليست حمية وغيرة قطعاً."[70]

لقد تعلم الرجل العظيم من أصل دينه أن الإسلام على مستوى التاريخ يطوي أبعاد الزمان ويجمع الأنبياء في عقد واحد ، والبشر في أصل واحد، ويحتم على الجميع أن يتعاونوا وما لم يتعاونوا ديناً لوجب عليهم أن يتعاونوا نسباً وصهراً ، يقول تعالى:

(يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً[71])

ويوجب على أتباعه والمؤمنين به أن يؤمنوا بكل الرسالات السابقة وأن يحترموا ويوقروا جميع الأنبياء السابقين ، فيقول سبحانه:

---

69 المكتوبات 415
70 المكتوبات 415
71 النساء 1

(آمن الرسول بما أنـزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكتـه وكتبـه ورسلـه لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير [72]).

وعلـى مسـتوى الجغرافيـا ، لا يعتـرف بنقـاط التفتـيش ولا بالحـدود المصـطنعة ، فالنـاس جميعاً من أصل واحد ، وكلهم لآدم وآدم من تراب .

والمؤمنـون بـه أخـوة ، يتسـاوون فـي الحقوق والواجبـات ، حقـوقهم محفوظـة ، وكـرامتهم مصـانة وحريـاتهم محترمـة ، مهمـا اختلفت مـواقعهم وأمـاكنهم ، وبصـرف النظـر عـن ألـوانهم وأعراقهم فرب أشـعث أغبـر ذي طمـرين لـو أقسـم علـى الله لأبـرّه ، والعبـرة فـي قيمـتهم بـالعلم والتقوى والعمل الصالح ، يقول الحق تعالى:

(يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير [73])

فهل تكون هذه المبادئ نبراساً لنا في قضـية تعليم وتكـوين الناشـئة، ونحـن نواجـه تكتلات بين أجناس شتى ، لغاتها ليست واحدة ومذاهبها ليست واحدة وأجناسها ليست واحدة ، ومـع ذل يجمعها رباط المصـالح المادية، وتتوحد فيمـا بينهـا التصـورات نحـو الكثيـر مـن القضـايا حمايـة لمصالحها وابتغاءً لقوتها؟

وهل تكون أمتنا آخر أمم الأرض سماعاً للنصح ، واستجابة لنداء المصـالح ، وتلبيـة لأمـر الله بوحدة المسلمين ، ونبذ أسـباب التفرقـة والعنصـرية؟ ذلك مـا يرفضـه منطـق العقل ويأبـاه ، خاصة ونحن نواجه تحديات تستهدف الدين والهوية والمستقبل والمصير .

---

72 البقرة 285

73 الحجرات 13

فضح الغش الثقافي والتصدي لحرب المصطلحات التي تتعرض لها الأمـــة

لم تتعرض أمة من أمم الأرض لهجمة تستهدف عقيدتها وهويتها مثلما تتعرض أمتنا في زمنها الراهن . وإذا كان القرآن الكريم قد نبهنا إلى طبيعة الأعداء وأساليب هجومهم ، فإن الأمة في زمن الغفلة والانكسارات نسيت هذا التحذير وأغفلت هذا التنبيه فكان ما كان . قال تعالى:

(لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذىً كثيراً[74])

وهذا الأذى الكثير بوصف القرآن له لم يتوقف يوماً ، ولم يأت من طريق واحد ، وإنما كان ولا يزال يسلك إلينا كل طريق ويحاول الدخول علينا من كل باب.

وإذا كانت اليقظة مطلوبة في كل وقت ، فهي في زمن الانكسارات والنكبات تصبح مطلباً يتجاوز حدود الاحتياج ليصل إلى حد الضرورة، حيث بها وعن طريقها تستعيد الأمة وعيها الغائب ورشدها المفقود وإرادتها المسلوبة ، كما تستثير هذه اليقظة عناصر المقاومة الذاتية والكامنة في ضمير الأمة ، ومن ثم تخرج من غيبوبة الهزائم لتدخل في مرحلة الإنعاش والصحوة ، وبقدر ما يكون لدى الإنسان الفرد من يقظة ووعي بقدر ما تتشكل عقلية الأمة ، أو يتشكل العقل الجمعي فيها .

فإذا كانت المكونات الثقافية لهذا العقل حية نابضة ، تحركت الأمة في الاتجاه الصحيح ، واتسعت مساحة حضورها وتأثيرها على مستوى الجغرافيا والتاريخ أيضاً .

---

74 آل عمران 186

أما إذا كانت هذه المكونات ميتة أو فاسدة ، ولم تكن نابعة من أصالة تحصن البيئة ضد عوامل الدمج والذوبان ، فإن الأمة تفرغ من محتواها، وتغيب عن دورها ورسالتها ، ويتلهى أبناؤها بالحديث في الغث من الثقافة، والشارد الضال من الفكر، ثم يدخلون في جدليات تستنفد الجهد والطاقة، ولا تعود بفائدة تذكر في النمو الاجتماعي أو برقي في ميادين الحياة.

ومن هنا يتحتم بالضرورة حماية العقل ، عقل الفرد والمجتمع ، من الجراثيم الثقافية التي تفتك به ، وتهدد وجوده ، وتبدد جهوده ، وذلك بمطاردة الفكر الضال الذي يؤصل العجز ، ويكرس الهزيمة النفسية والفكرية ، ويشيع لدى المسلم روح الاستسلام .

ولما كان الإنسان هو العنصر المؤثر والمباشر في رفع عار الهزائم ، وذلك ببذل الجهد واستثمار الطاقة وتوظيف الإمكانيات ، فإنه والحالة هذه يكون في مقدمة الثروات ، ويكون أعلى وأغلى رأسمال يجب حمايته والمحافظة عليه والدفاع دون اختراقه عقلاً ووجداناً ، وحمايته في هذه الحالة، إنما هي حماية للأمة ، واستبقاء لكيانها العام ، وتحصينه بالثقافة الحية والفكر الأصيل هو تحصين للأمة من التدمير الداخلي ، بإشاعة الإحباط والفشل بين جنباتها المختلفة .

وضمن ما تتعرض له عقول أبناء الأمة من الخطر ، بل في مقدمة السموم الثقافية التي يتم تناولها في كل يوم مقروءة ومسموعة ومرئية ما يسمى بحرب المصطلحات .

وهي حرب يقصد بها أحياناً تكريس معنى معين ، يخدم قضية بذاتها، أو يمهد لفكرة يريد العدو إشاعتها بيننا فيركز إعلامياً عليها، وعن طريق الإلحاح والتكرار ترسخ في الأذهان وتستقر في الوجدان العام ، وتتلقاها الأجيال ، وكأنها مسلمات دون بحث في حقيقتها أو تحليل لمضمونها ومحتواها .

ومن هنا تفرغ الكلمات من مضمونها الحقيقي، ومن معناها اللغوي، وذلك باستعمالها بخبث ومكر ودهاء في غير معناها ، وأحياناً في عكس معناها ، والأمثلة على ذلك عديدة ومتنوعة.

منها مثلاً: مصطلح النص في مقابل العقل ، الأصالة أو المعاصرة، الصراع بين العلم والدين ، قهر الطبيعة ، الأصولية والإرهاب ، التشدد والتطرف والهوس الديني، وما إلى ذلك من مفردات كثيرة يراد لأبنائنا قبولها واستعمالها والتآلف معها وكأنها قضايا مسلمة ، وهي مصطلحات أطلقتها صحف وإذاعات، من خلفها مؤسسات أجنبية ، لا تضمر خيراً للإسلام ، ولا تكن احتراماً للمسلمين ، فضلاً عن أنها قبل أن تبث خبراً ما تكون قد حسبت حساباتها الدقيقة لمدلوله وآثاره وردود أفعاله في عقول ومشاعر الذين يتلقونه خصوصاً من أبناء العالم الثالث، وطبيعي جداً أن تكون كل الحسابات لصالح هذه الجهات في الحاضر والمستقبل معاً ولذلك تختار الكلمات من قبلهم بدقة متناهية لتفضي في النهاية إلى ما يريدون ، ثم تجري على ألسنتنا نحن بما يخدم قضاياهم ويحمي مصالحهم ويقتل كل عناصر الرفض والمقاومة في الأمة المحروبة ، بمزيد من إضفاء صفات الكراهية والتنفير على كل الرافضين للقهر والاستبداد والاستغلال، وذلك بإطلاق المصطلحات إياها والمعروفة لدى الجميع .

وإذا تركت الأمة عقول ووجدان أبنائها مستباحة لدى الآخرين ، ليبثوا فيها سمومهم بحجة حرية الثقافة ، وحرية المعلومات، وحرية الاختيار، خصوصاً لدى النشء الجديد الذي لا حصانة لديه ولا معرفة له بأساليب الآخرين ، فالنتيجة ستكون وخيمة ، والكارثة ستكون فادحة ، وذلك بالطبع نذير شؤم لا بد أن يحسب العقلاء حسابه ، وأن يسارع كل الشرفاء إلى التخلص منه ، لأنه وباء جديد ينتشر في عقل الأمة ، فيكرس فيها الهزيمة ويغرس في وجدانها جذور الإحباط ، ومن هنا تكون صياغة الرأي العام ، وصناعة الأفكار والعقول ، من أخطر المهام التي تؤثر في حياة الأمم والشعوب في الحاضر والمستقبل ، ويتحتم على أمتنا بحكم تحديات الصراع ، أن تدخل في هذا المجال ، وأن يتحول العمل فيه إلى واجب

وجهاد يعدل في قيمته الدينية مع الصلاة والصيام والحج ، لأنه يحمي عقول الأمة من الاجتياح الفكري الظالم الذي تجب مقاومته ديناً، كما تجب مقاومته رجولة وشرفاً حماية لمستقبل الأمة من الانبهار غير المحسوب ، والانهيار المنتظر على المدى القريب أو البعيد . والغريب أن الآخرين في مواجهة الأمة لم يكتفوا بما لديهم من إمكانيات ووسائل، وإنما جندوا لهذه الأغراض جنوداً عندنا يكتبون ، ولكن بأقلام الآخرين، ويهتفون ولكن أيضاً بأصوات وحناجر الآخرين .

وقد كان النورسي واحداً من أولئك الذين تصدوا لهؤلاء وكشف خباياهم وخاطبهم قائلاً: "إن تصوير الأباطيل تصويراً جيداً إضلال للأذهان الصافية."[75]

ثم يشير رحمة الله عليه إلى حجم التدليس والخلط الذي يمارسه هؤلاء ضد دينهم وأمتهم ، حيث يدّعون الوطنية ويلبسون ثياب الناصحين وهم يمارسون تزييف وعي الأمة ، ويبثون سمومهم للجماهير في أسلوب خدَّاع لا ينطوي على أهل العلم والحصافة فيقول:

" لقد وضع الظلم على رأسه قلنسوة العدالة ، ولبست الخيانة رداء الحمية ، وأطلق على الجهاد اسم البغي ، وعلى الأسر اسم الحرية ، وهكذا تبادلت الأضداد صورها."[76]

وينبه الأمة ويحذرها من مغبة السكوت على ذلك أو التودد إلى هؤلاء، فالتودد إليهم لا يقلل من حقدهم وكراهيتهم لدين الله ولمجتمعات المسلمين، وإنما يزيدهم ضراوة وشراسة ، يقول النورسي:

"إن التودد إلى وحش جائع لا يثير شفقته بل يثير شهيته فضلاً عن أنه يطالب بأجرة أنيابه وأظفاره."[77]

---

75 المكتوبات ص 603

76 المكتوبات ص 604

77 المكتوبات ص 404

ألا فلتسمع الدنيا صوت هذا العالم الرباني ، وليت للبراق عيناً ، فترى ما تعانيه أمتنا وهي تجثو مترجية أمام الوحش الهائج ، فإذا بهذا الرجاء لا يزيده إلا إمعاناً في إهانتها ، وتحقيراً لشعوبها ، وإبادةً لأبنائها ، ثم يطالب بالمزيد من الأجر لأنيابه التي اغتالت كرامتها ، وأراقت دماءها ، وأغرت بها القاصي والداني .

فهل بقي بعد ذلك ثوب يستر فكر محتال ؟!

وهل بقي بعد ذلك حجاب يغطي وجه دجال؟!

(فلا تطع المكذبين ، ودّوا لو تدهن فيدهنون[78])

---

78 القلم 8-9

خـاتـمـــة

بديع الزمان الرجل والدور التاريخي

وبعد ، فنحن أمام رجل من طراز فريد ، فهو عالم رباني يعيد للأذهان صور العلماء العمالقة ، وكأن التاريخ يستدير كهيئته الأولى ، وكأن الزمان يضاجع الألم والمعاناة فينجب أمثال هذا الرجل العظيم الذي لا يملك إلا قلباً وهبه لله ، وعقلاً سخره لخدمة قضايا دينه وفكرته ، فعالج كأفضل ما يكون العلاج ، ووصف كأصدق ما يكون الوصف .

وعاش بين الناس متواضعاً، يرشد ، ويوجه، ويبعث الأمل ، وينشط الهمم في كفاح لا يعرف الملل ، وعراك مع شياطين الأنس لا يعرف الهزيمة، ولا يتوقف عن النـزال مهما كانت الجراح حتى ولو تهددت الحياة، وبالتالي فأمثال هؤلاء الرجال لا يمكن إغواؤهم بمنح متع الحياة لهم، ولا بمنع الحياة نفسها عنهم ، فالحياة الدنيا في نظرهم ليست غاية ومطلباً ، وإنما ما بعد الحياة الدنيا هو المطلوب المرغوب .

وإذا كانت الأرض لن تخلو أبداً من قائم لله بحجة ، إما ظاهراً مشهوراً، وإما خائفاً مغموراً، لئلا تبطل حجج الله وبيناته، أولئك والله الأقلون عدداً، والأعظمون عند الله قدراً، يحفظ الله بهم حججه وبيناته حتى يودعوها نظراءهم ويزرعوها في قلوب أشباههم ، هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة ، فباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعره المترفون، وآنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى ، وعاشوا حياتهم وهم يتطلعون إلى لحظة الخلود بلقاء الله، فهانت عليهم الدنيا وصغرت في عيونهم كل قوى الطواغيت فتحدوها برجولة منقطعة النظير، وبإيمان تتزلزل الجبال ولا يزول .

وقد كان بديع الزمان واحداً من هؤلاء الذين هم أعظم عند الله قدراً، وكأن قدر الله اختار الرجل ليؤدي هذا الدور التاريخي في مرحلة تعد من أخطر مراحل التحول في حياة تركيا وحياة المسلمين عموماً ، وليكون الرجل شاهد عصره وزمانه وكأن فم الزمان يقول بلسانه:

لا لن تخبو أبداً أنوار الحق

لا لن يسكت أبداً صوت الأذان

لا ولن تتوارى أبداً شمس الإسلام

لا ولن يعلو أبداً صوت الشيطان فوق صوت الوحي المعصوم مهما تقدم الباطل وطال ليله وامتد حبله وانتفخت أوداجه .

ونسمع من بعيد صوت الرجل وهو يستشف حجب الغيب المكنون، وينبه الغافلين إلى سنة كونية مفادها إن الله لا يصلح عمل المفسدين فيقول لهم:

"ليس بالإمكان القيام بعمل إيجابي بنّاء مع التهاون في الدين ، حيث اقتربت الحضارة القرآنية من الظهور، وأوشكت الحضارة الأوروبية الضالة المسؤولة عن ضعف الدين على التمزق والانهيار."

فهل يفهم المهزومون وسماسرة الثقافة وتجار الفكر الشارد هذه النبوءة؟

رحم الله بديع الزمان ، فقد تخطى بنظره الثاقب وكلماته الصادقة حدود الزمان ، كما تخطى بفكره الناضج نقاط التفتيش وحدود المكان .

وهكذا يعيش العظماء ويحيون رغم الممات، ويخلدون رغم تحلل الأجساد. وإذا كان الأموات الذين لا يسمعون في مجتمعات المسلمين يحاولون قتل الأحياء والقضاء على فكرهم الفوار بالحيوية والحركة ، إلا أن الأفكار المستمدة من كلمات الله تستعصي على الفناء ، ولا تجري عليها قوانين التغيير ولا التزوير، لأن سرها من كلمات الله ، وخلودها من خلود كلماته، فستبقى تعلو ولا يعلى عليها، وتهدر كالإعصار، فتلقف ما يأفكون، وتحيا وإن مات

أصحابها ، وتخلد في الضمائر والعقول برغم ضراوة الفساد الذي يحاول أن يحجب الرؤية، ويشوه الحقائق، وينال من أقدار العظماء .

وسيبقى سعيد تسعد بكلماته الأجيال، وتستضيء بفكره الأمة، فتستمد منه طهارة النفس من الإثم ، وطهارة العقل من الخرافة ، وطهارة القلب مما سوى الله . لأنه من بحار التوحيد ينهل، ومن السنة يرتوي، وعلى كلمات القرآن وبها يحيا سعيداً وبديعاً في زمانه ، وفي كل الزمان.

سلام عليك أيها الإمام في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

وجمعنا الله بك في جواره الذي هو أكرم وأخلد وأعز .

مـصـادر الـبـحـث

القـرآن الكريـم

السنة النبوية المطهرة

كليات رسائل النور، تأليف سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي

الكلمـات ، ج1 ، ط1 ، 1992 .

المكتوبات ، ج2 ، ط1 ، 1992 .

الشعاعات

اللمعـات

بديع الزمان سعيد النورسي في مؤتمر عالمي، أبحاث مؤتمر استانبول، 1992 .

منهج الإصـلاح والتغيير عند بديع الزمـان النورسـي، عبد الله محمود طنطـاوي ، ط1 ،
دار القلم ، دمشق ، 1997 .

منهج الإسلام في تحقيق الأمن، ج2، رسالة دكتوراه، الدكتور إبراهيم ابو محمد .

دعوة إلى التفكير ، ط2 ، الدكتور إبراهيم أبو محمد ، أبو ظبي للطباعة والنشر، 1996.

دعوة إلى التأمل ، ط2 ، الدكتور إبراهيم أبو محمد ، أبو ظبي للطباعة والنشر، 1994.